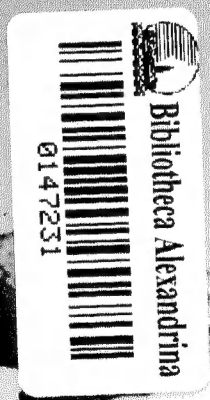


# المجتمع والبيئة



٩٩



# المجتمع والرؤية

قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسة  
لأبي حيان التوحيدي

جميع الحقوق محفوظة  
الطبعة الأولى  
1413هـ - 1993م

 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمرا - شارع اميل اده - بناية سلام

هاتف : 802428 - 802407 - 802296

ص. ب : 113/ 6311 - بيروت - لبنان

تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

11677

892.709  
0034  
ش ب ٢

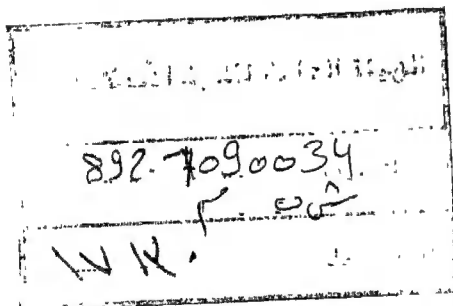
الحبيب شيل



Central Organization Of the Alexan-  
dria Library (GOAL)  
Bibliothèque d'Alexandrie

# المجتمع والرؤية

قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسة  
لأبي حيان التوحيدي



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع



الذِّكْرُ

إلى أم وصال وسهيل وغسان  
محبةً ووفاءً

الحبيب





## تقديم

في خضمّ كثرة المناهج النقدية وتعدّد القراءات الناشئة عنها اشتدّ الاختلاف بين المدارس النقدية : فمن نظريات الإنعكاس إلى نظرية التقبل ومن النقد التقليدي . إلى النقد البنيوي إلى جمالية التلقي الخ . .

ولكن رغم هذا الاختلاف الكبير أحياناً يبقى النص هو المرجع الأول الذي تبني عليه كلّ نظرية أسسها . ففي حين تعتبر نظرية الإنعكاس بمختلف رؤاها التقليدية والنفسية والاجتماعية إنّ كينونة النص في جوهرها تمثّل إما لواقع المجتمع أو لنفسية المبدع ؛ ترى جمالية التقبل أنّ قيمة النص في ما ينشئه في المتلقي من أفق انتظار جمالي يتنوّع من متقبل إلى آخر وفق أنساق معارفه اللغوية والفلسفية ورؤاه إلى الحياة . وإن هذا الاختلاف لظاهرة ثراء في النقد تعني سُبُله وتفتح إمكانات النظر فيه من مداخل كثيرة سواء كان نصّاً قديماً أو حديثاً.

وقد رأينا أن نرجع في هذا العمل إلى نصّ قديم هو الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي نروم من النظر فيه استخلاص خصائص المجتمع الذي صوّره وتحديد رؤية المؤلف له . وتوسلنا في سبيل تحقيق ذلك بما سميناه القراءة النصية .

والقراءة النصية في مذهبنا تنظر في النص نظراً مباشراً دون أن تستند إلى قراءات أخرى نظرت في الإمتاع والمؤانسة وحدّدت رؤيتها إليه . وهي ليست قراءة بنيوية لأنها لا تقرّ بأن النصّ بنية منغلقة عن التفاعل مع الخارج ؛ ولكنها القراءة التي يخلو فيها الذهن من كلّ الآراء المسبقة حول الأثر موضوع الدراسة إلّا من الوسائط المنهجية في تمحيص النصّ وتدقيق النظر إليه .

ولأنّ القراءة النصّية ليست قراءة من داخل الأثر فحسب ؛ فقد مهدنا لها بالحديث عن أهمّ مظاهر حياة أبي حيان وعن مؤلفاته مثلما مهدنا لها بتقديم كتاب الإمتاع والمؤانسة بما يساعد على فهم نصّ الأثر وفق القراءة النصّية . وقد حرصنا في الترجمة للمؤلف أو في التعريف بالكتاب على أن لا نذكر من الآراء إلّا ما اعتبرناه مُساعداً على تحقيق تلك القراءة . فتجنّبنا عرض أحكامٍ تتسلط على الإمتاع وتحدّد أفق النظر فيه .

والإهتمام بالعلاقة بين المجتمع ورؤية المؤلف يقرّ بالتفاعل بين المبدع والمجتمع ؛ والتفاعل لا يعني الإنعكاس ضرورةً . وتعدّ مؤلفات أبي حيان التوحيدي من أفضل الآثار المعبرة عن ذلك التفاعل ؛ فأبو حيان ذو شخصية جذابة يعزي أسلوبه ومواقفه من قضايا عصره بدراسة آثاره ثم إنه مثلما قال آدم متر فيه « ربّما كان أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق » .

ويعتبر كتاب الإمتاع والمؤانسة من سائر كتب المؤلف أشدها صلة بالمجتمع ؛ ففيه حديث طويل عن المجتمع وقد تلوّن برؤية أبي حيان إلى الحياة . لذلك اعتمدناه مصدراً لدراسة المجتمع والرؤية .

وقسمنا عملنا إلى مداخل عامة وثلاثة أبواب استقصينا فيها تفاعل رؤية أبي حيان مع خصائص الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية قبل أن نخصّص فصلاً لتحديد القيمة الوثائقية للكتاب ولتقويم مواقف أبي حيان . وقد حملنا التقويم على الرجوع إلى أمّهات المصادر لنقارن بين ما جاء فيها من حديث عن المجتمع وبين الصورة المرسومة له في كتاب الإمتاع .

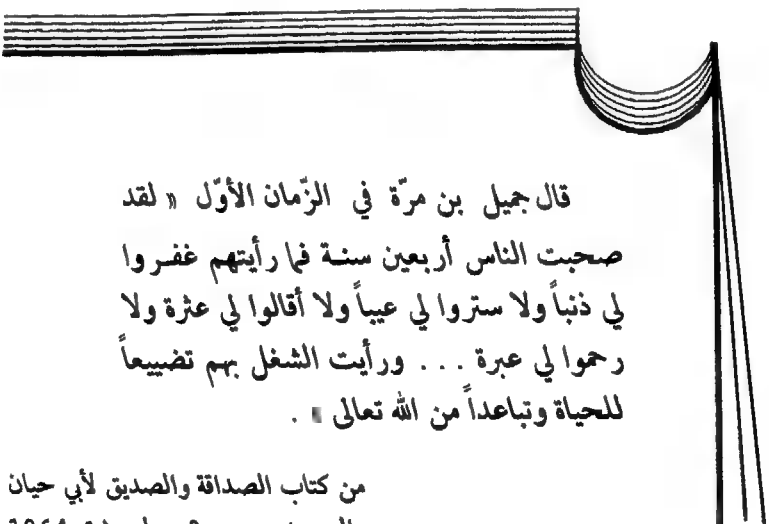
ومكّنتنا المقارنة من تفسير بعض مواقف المؤلف من عصره عموماً .

وهكذا نرى أنّ الدّراسة النصّية لا تقطع كلّ القطع مع استغلال المعلومات الخارجة عن النصّ لفهم أعمق للنصّ ؛ يُمْكِن الناقد من تقويم المواقف الواردة فيه . لكن التوسّل بتلك المعلومات يكون في مرحلة تتلو النظر في النصّ لتعليل موقف أو تفسير رؤية .

فتكون بذلك القراءة النصّية قراءة الفهم وفق الأسس المنهجية التي تحقّق ذلك الفهم .

وأودّ في خاتمة هذا التمهيد أن أشكر الأستاذ حسن الصّادق الأسود الذي رعى هذا العمل بإشرافه عليه في نطاق شهادة الكفاءة في البحث بالجامعة التونسية .

الحبيب شبيل



قال جميل بن مرّة في الزّمان الأوّل « لقد  
صحبت الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا  
لي ذنباً ولا استروا لي عيباً ولا أقالوا لي عثرة ولا  
رحموا لي عبرة . . . ورأيت الشغل بهم تضييعاً  
للحياة وتباعداً من الله تعالى » .

من كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان  
التوحيدي - ص 9 . ط دمشق 1964



## ترجمة تحليلية لأبرز مظاهر حياة أبي حيان التوحيدي

إنَّ الهدف من هذه الترجمة ليس التعرّض بالتفصيل الكبير إلى مختلف دقائق حياة أبي حيان وإنما هو تحليل أبرز المظاهر المؤثرة في حياته التي قد تساعدنا على فهم شخصيته .

### 1 - وصف لمراحل حياته

هو أبو علي بن محمد بن العباس التوحيدي . وقد اختلف النقاد ومؤرخو الأدب العربي في السنة التي ولد فيها . وحاول الناقد التونسي محمد الحبيب حمّادي بالاعتماد على تحليل أقوال للمؤلف أشار فيها إلى عمره تدقيق سنة ميلاده فوقف على - شبه يقين - « نُؤيِّده فيه » فقال . . انتهينا إلى شبه يقين بولادته بين سنة 317 و ( سنة ) 319 هـ . <sup>(1)</sup> ونحن لا نكاد نعرف عن طفولته شيئاً كما هو الأمر بالنسبة لأخريات عمره . فقد أهملت كتب التاريخ الحديث عنه ، وقد تعجّب ياقوت الحموي من أن أحداً لم يذكر التوحيدي في كتاب ولادته في خطابه <sup>(2)</sup> .

ولولا أن أبا حيان تحدّث عن نفسه في آثاره لما أمكننا أن نعرف عن سيرته شيئاً . وقد مكّنتنا هذه الأحاديث من معرفة الفترة الواقعة ما بين سنتي 348 و 375 للهجرة من حياة المؤلف ولعلّها أنشط أحقاب عمره . وقد قضّاها مترحّلاً من بلد إلى بلد ينشد الحظّ

---

(1) محمد الحبيب حمّادي : التوحيدي وقراءة جديدة في الإمتاع والمؤانسة ص 24 الطبعة الأولى نشر شركة صفاء للنشر والتوزيع والصحافة بتونس 1978 .

(2) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (ج 15 ص 5) طعة القاهرة سنة 1936

الحسن في الحياة عند وزراء الدولة البويهية خاصة .

وكانت أول اتصالاته بأبي محمد الحسن بن محمد المهلبى<sup>(3)</sup> وزير معز الدولة (المتوفى عام 356 هـ) « ونحن لا نعرف السنة أو الظروف التي اتصل فيها به .

فكتب التبراجم لا تذكر شيئاً عن علاقة أبي حيان بالمهلبى غير أن هذا الأخير نفاه عن بغداد للعداء الذي كان يظهره للشيعة ولسوء عقيدته « وقد عرف عن المهلبى أنه كان شديد الرطة على أصحاب الجدل والبدع .

وخرج التوحيدي من بغداد ولم يعد إليها إلا سنة 352 هـ بعد وفاة المهلبى وبقي بها حتى سنة 358 هـ لم يغادرها إلا للحج سنة 353 هـ . وكان يشتغل في هذه المدة بنسخ الكتب على كُرهِه منه ، وقد سَمى هذا العمل بحرفة الشؤم لأن فيها ذهاب العمر والبصر .<sup>(4)</sup>

وبعد هذه الفترة خرج التوحيدي من بغداد إلى الري قاصداً باب أبي الفتح بن العميد<sup>(5)</sup> الملقب بذي الكفایتين وزير ركن الدولة البويهى (المتوفى عام 366 هـ) . وكان يأمل أن يجد عنده ما يردّ غائلة الفقر ، فعاب أمله .

وبعد ما سجن ابن العميد وسُملت عينه وقُتل ، تجدد الأمل مرة أخرى في نفس التوحيدي فانتجع فناء الصّاحب بن عبّاد<sup>(6)</sup> المتهم بالمشاركة في الإيقاع بسلفه ابن العميد « وكانت أمانيه كبيرة لأن الصّاحب قد فتح بابه للأدباء والعلماء « لكنّ حفظه معه كان أسوأ من حفظه مع الوزيرين الأولين « وخلف فشله في فئائه ، عداوة شديدة .

وكان للفشل الكبير الذي لاقاه أبو حيان مع ابن العميد ثم مع الصّاحب أبلغ الأثر

---

(3) هو أبو محمد الحسن بن محمد المهلبى وزير معز الدولة البويهى . يقول فيه ابن خلكان في (وفيات الأعيان ج 3 ص 392): كان غاية في الأدب والمحبّة لأهله . «وقال فيه مسكويه في (مخارب الأمم ج 2 ص 198): «مات بموته عن الكتاب الكرم والفضل وقد توفّي عام 352 هـ .

(4) ياقوت الحموي معجم الأدباء ج 15 ص 28 .

(5) هو علي بن محمد بن الحسين المعروف بأبي الفتح بن العميد . يلقب بذي الكفایتين : كفاية السيف وكفاية القلم « خلف أباه ، أبا الفضل بن العميد في وزارة ركن الدولة ، كان مجلسه منتدى الأدباء وأهل العلم . خاف منه السويهيون فقتلوه سنة 366 هـ .

(6) هو أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن المعروف بالصّاحب بن عبّاد ، تولّى الوزارة بالرّي بعد وفاة العميد سنة 366 هـ . يقول فيه ابن خلكان في (وفيات الأعيان ج 1 ص 206): «كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه» . «وكان أديباً فخوراً بنفسه ويأدبه جاداً في سياسته» توفّي عام 385 هـ .

في نفسه فكتب فيها كتاب ( مثالب الوزيرين ) وهما أشنع هجاء .

وفي سنة 370 هـ عاد أبو حيان إلى بغداد مكلوما ، مقروح النفس من حظّه النكد العائر فاشتغل في بيمارستان المدينة مدّة ١١ قبل أن يوصله صديقه أبو الوفاء المهندس<sup>(7)</sup> بالوزير أبي عبد الله الحسن بن سعدان<sup>(8)</sup> وزير صمصام الدولة البويهى وقد سامره التوحيدي ليالي عديدة ، وكان حظّه معه أفضل من حظّه مع بقية الوزراء ، إذ أنّ الوزير قرّبه وسمع أحاديثه في مختلف ضروب الحكمة والسياسة والدين وغيرها من الفنون . لكن يبدو أنّ انشغاله بمواجهة أعدائه في الحكم قطع الصلات بين الرجلين فبقي التوحيدي يتلهّف شوقاً إلى تلك الليالي ويُذكر أبا الوفاء بالتوسّط له ثانية عنده . يقول دكّر الوزير أمري وكرّر على أذنه ذكرى وأمل عليه سورة من شكري .<sup>(9)</sup>

وقد دوّن التوحيدي كل مسامراته مع ابن سعدان في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » .

وبعد سنة 375 هـ أي بعد مقتل ابن سعدان اختفى التوحيدي ١١ وليست لنا معلومات مدققة عن أطوار هذه الفترة ١١ إلا أن المرجح أنّها فترة شقاء وخصاصة عاشها الكاتب متصوّفاً متردداً بين بغداد وشرiraz . وأبرز ما وقع فيها عمّده إحراق كتبه سنة 400 هـ ١١ ضناً بها على من لا يعرف قدرها وانتقاماً من الناس الذين عاش بينهم محروماً . يقول ردّاً على عتاب صديقه القاضي علي بن محمد في حرقها : « وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صبح لي من أحدهم وداد ١١ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ١١ ولقد اضطرتت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفّف الفاضح عند الخاصّة والعامة وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي

---

(7) هو محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني المعروف بأبي الوفاء المهندس . تقول عنه دائرة المعارف الإسلامية ( الطبعة الجديدة ص 163 و164 أنه من أشهر علماء الحساب ، له كتاب بعنوان « في ما يحتاج إليه الكتاب والعلماء من علم الحساب » وله كتاب آخر في الهندسة . ساهم في تطوير علم الحساب المعروف بالفرنسية : trigonométrie وهو صديق أبي حيان التوحيدي الذي ألف له كتاب الإمتاع والمؤانسة ، توفي عام 388 هـ .

(8) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى . تولّى الوزارة عام 373 هـ . اشتهر بحسّ أخلاقه . وقد اتسم الوضع في حكمه بعلاء الأسعار والاضطرابات الاجتماعية ، وظهر له عدو كبير هو عبد العزيز بن يوسف فكاد له عند صمصام الدولة حتى سجنه ثم قتله سنة 357 هـ . كان له مجلس علماء وأدباء يتباهى بهم ويفخر غيره من الوزراء بالرّي .

(9) الإمتاع والمؤانسة ج 3 ص 227

الرَّيَاءَ بِالسَّمْعَةِ وَالتَّفَاقُ»<sup>(10)</sup> .

والمَرَّحُ أن أبا حيان التوحيدي قد توفي سنة 414 هجري ، بعد حياة مضطربة وأليمة .

## 2 - تحليل المؤثرات الأساسية في شخصيته

تنقسم هذه المؤثرات إلى : مؤثرات ثقافية وأخرى اجتماعية :

أما المؤثرات الثقافية فنبدأها بذكر أساتذته ومن أبرزهم أبو سليمان السجستاني<sup>(11)</sup> الذي كان فيلسوفاً ومنطقياً ولغوياً وصاحب رأي في الأدب وغيره ، وقد لازمه أبو حيان ، وروى عنه آراءه في أغلب كتبه ، وكتاب المقابسات للتوحيدي يكاد يكون مقصوراً على آراء أبي سليمان .

والأستاذ الثاني لأبي حيان هو الشيخ أبو سعيد السيرافي<sup>(12)</sup> وقد كان متضلعا في النحو والكلام وغيرهما من العلوم . قال فيه التوحيدي « أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ وإمام الأئمة » معرفةً بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة . أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة فما وجد له خطأ ولا عُثر منه على زَلَّةٍ<sup>(13)</sup> .

وهناك شخصية ثالثة لها تأثير كبير في أبي حيان وهي شخصية القاضي أبي حامد المرورودي<sup>(14)</sup> وكان أبو حيان معجباً به إعجاباً شديداً « ملازماً له ينقل عنه ويروي أخباره » .

نستنتج بعد عرض أسماء هؤلاء الشيوخ أن أبا حيان قد أخذ العلوم على أشهر

---

(10) معجم الأدباء ج 15 ص 19 .

(11) هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن هرام السجستاني المنطقي ولد حوالي سنة 300 هـ تلميذ متى بن يونس القناني (توفي عام 328 هـ) ويحيى بن عدي (توفي عام 364 هـ) تقول دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة ص 156) إنه متأثر بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة . وكان يعقد بمنزله حلقات فكرية يحضرها عدد كبير من طلاب العلم .

(12) هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي ، وكنيته أبو سعيد ، من أشهر علماء النحو في القرن الرابع للهجرة . تولى القضاء ببغداد عدّة سنين ، وأجرى مع متى بن يونس القناني سنة 326 هـ مناظرة حول المأضلة بين النحو والمنطق . توفي أبو سعيد سنة 368 هـ .

(13) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج 8 ص 150

(14) هو أحمد بن عامر بن بشير بن حامد المرورودي ، كان فقيهاً شافعيّاً واسع الإطلاع في أصول الشريعة وفروعها ، وحافظاً للسيرة واللغة والأدب توفي سنة 362 هـ .



أساتذة عصره وكلهم مفكرون موسوعيون تناولوا مختلف ضروب العلم والمعرفة بالدّرس والتدقيق . وأثرهم في أبي حيان لا شك فيه ، إذ تظهر موسوعيته في كلّ مؤلف نتصفحه ومن أهمها كتاب الإمتاع والمؤانسة .

ومن المصادر الثقافية التي لها تأثير في التوحيدي مهنة الوراقه التي تعاطاها مرغماً وسماها ( حرفة الشؤم ) ، ولا شك أنّ عمله هذا مكّنه من أن يطلع على أمّهات الكتب العربية التي كان يولع بها الوزراء الذين اتصل بهم ، ومن الكتب التي نسخها لابن سعدان كتاب الحيوان للجاحظ .

وكان أبو حيان متّصلاً بالحلقات العلميّة العديدة التي كانت تعقد في عصره في قصور الوزراء أو خارجها . وكان الحديث يجري فيها حول مختلف العلوم السياسية والدينية والفلسفية واللغوية وغيرها . ومن غير شكّ فإنّ التوحيدي أفاد من الجدل الفكري الذي سمعه وشارك فيه .

إن مؤثرات هذه العناصر واضحة في شخصية التوحيدي الفكرية إذ مكّنته من البحث في كلّ المشاكل الثقافية في عصره . وقد كانت له حافظة قوية جعلته يكتنز ما استوعب . وهو كثيراً ما يستنجد بها للإجابة عن سؤال أو تدعيم رأي . وستكون لهذه المعارف طبعاً تأثيراتها في كتاب الإمتاع والمؤانسة . أما في ما يتعلق بالعوامل الاجتماعية المؤثرة في شخصية أبي حيان فنشير أولاً إلى تواضع نسبه إذ لم يعرف لأسرته نبوغ في السياسة أو الأدب أو غيرهما . وقد نشأ فقيراً وبقي كذلك حتى أواخر حياته يكسّد ويستجدي ويترحل عساه ينال نصيبه من الدنيا دون جدوى .

وأثر الفقر واضح في شخصية التوحيدي فقد « غدا فكرة رهيبة سيطرت عليه طول حياته وشغلت عقله وأدبه فظهرت في كلّ نفثة من نفثاته »<sup>(15)</sup> فقد قال : « غدا شبّابي هَرماً من الفقر والقبرُ عندي خير من الفقر »<sup>(16)</sup> .

وقد بلغ به الفقر حدّاً لم يجد معه أدنى القوت ولم يوفر للملبسه ( طمرين للتستّر لا الزينة والاختيال ) فانفجر متبرّماً به في شكوى قاسية أليمة ، يقول : « إلى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية والقميص المرقع . . . إلى متى التأدّم بالخبز والزيتون ، قدّ والله

(15) إبراهيم الكيلاني : أبو حيان التوحيدي ص 30 ( ط 2 دار المعارف بمصر سلسلة نوايغ الفكر العربي ) .

(16) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج 15 ص 23 .

بَحّ الخلق وتغيّر الخلق»<sup>(17)</sup> .

وعندما نقارن بين سعة معرفة أبي حيّان العلمية وبين أحواله المادية والاجتماعية يبدو لنا التناقض بيّناً . وستكون لذلك آثار هامة في نفسية المؤلف .

فهو من ناحية معتدّ بثقافته أكبر اعتداد ، لا يتراجع عن إظهار ذلك ، ويعتقد أنّ منزلته تلك تؤهله للعيش الطيب في الحياة ، فجمع كتبه للناس ( ولطلب المثالة منهم ولعقد الرئاسة بينهم ) لكنه حرم ذلك كلّ فعمد إلى إحراقها في سنة 400 هـ .

وهو من ناحية أخرى يشعر بالمذلة الناشئة عن الحرمان والفقر .

هذا التناقض أنشأ في نفس التوحيدي صراعاً بين أمله في إدراك النعيم وشعوره بالعجز عن ذلك . فوقف من الناس مواقف متأثرة بذلك الصراع ، فنراه يحتقر العامة ويزدرئها لأنّ طموحاته فوق طموحات أهلها ولأنه يرى فيها المهانة والفقر . وهما أشدّ أعدائه . يقول معبراً عن احتقاره للعامة : « والله لربّما صليت في الجامع فلا أرى إلى جانبي من يصليّ معي فإن اتفق فبقال أو عصا أو نذاف أو قصّاب ، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه وأسكرني بتنته »<sup>(18)</sup> . وهو أيضاً يذمّ الخاصّة ، لأنها حرمته لذّة الحياة ، ولأنه يعتقد أنّ ملكاته ليست دون ملكاتها . ومن أبرز الآثار لهذا الذمّ كتاب « مثالب الوزيرين » .

لكن ماذا نتظر من الناس إزاء رجل ذمّهم خاصّة وعامة ؟

لم يتغافل أبو حيّان في ما كتب عن ذكر موقف الناس منه . فقد جانبوه وتركوه يعيش غريباً يعاني آلاماً نفسية شديدة ، فهو يقول في تصوير حالته في المجتمع : « فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة » غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، متحملاً للأذى ، يائساً من جميع من أرى »<sup>(19)</sup> . وقد صوّر هذه الغربة بعمق في كتاب الإشارات الإلهية قائلاً في تعريف الغريب : « قد علاه الشحوب وهو في كنّ وغلبه الحزن حتّى صار كأنه شنّ . . . إن ظهر ظهر ذليلاً » وإن توارى توارى عليلاً ، وإن طلب طلب واليأس غالب عليه ،

(17) أبو حيّان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ج 3 ص 227 تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ونشر دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

(18) أبو حيّان التوحيدي : الصداقة والصديق ص 5 (طبعة دمشق 1964) .

(19) أبو حيّان التوحيدي : الإشارات الإلهية ص 81 (تحقيق وداد القاضي ونشر دار الثقافة بيروت 1974)

وإن أمسك ، أمسك والبلاء قاصد إليه . . . »<sup>(20)</sup> .

وقد اتهم أبو حيان في دينه ، فابن فارس « كان واحداً من رجال الصّاحب ابن عبّاد المخلصين » فأراد الانتقام لسيد من تعريض أبي حيان ، وكان من ذلك أن أشاع بين الناس سوء اعتقاد المؤلف<sup>(21)</sup> .

إذن لم يبق للتوحيدي أمام مجانية الناس له وإحساسه الأليم بالغربة « إلا الانطواء النفسي واليأس والتشاؤم . فقد انطوى على نفسه انطواء تاماً ويئس من العيش الطيب في الحياة » وصوّر أحواله هذه في قوله : « وبعد فقد أصبحت في هامة اليوم أو غداً ، فإني في عشر التسعين وهل بعد الكبر والعجز أمل في حياة لذينة أو رجاء لحال جديد »<sup>(22)</sup> .

وفي سورة هذا اليأس أقبل التوحيدي على كتبه فمزّقها وأحرقها ، منتقماً بذلك من الناس الذين حرموه لذّة الحياة . وقد عاتبه على فعلته تلك القاضي أبو سهل علي بن محمّد فأجابته معتذراً في رسالة طويلة وبين له مختلف الأسباب التي دفعته إلى ذلك الفعل . وقد ختمها بجملة عميقة الدلالة عن مدى حزن المؤلف وأساه فقال : « وماذا أقول وسامعي يصدّق أنّ زماناً أحوج مثلي إلى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى » ويتقطّع القلب غيظاً وجوىً وضنى وشجى »<sup>(23)</sup> ومن علامات يأسه الشديد إقراره في كتاب الصّدقة والصدّاقة بما معناه ( ينبغي أن نثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق ) .

إن يأس المؤلف في ما يظهر ناشئ عن إحساس عميق بالغربة الاجتماعية وسيطّور هذا الشعور ويتعمّق أكثر ليصبح إحساساً بغربة وجودية تقيظ خلالها إحساس التوحيدي بالذنب فأخذ يعاتب نفسه بأقصى العتبان مكرراً عليها أهواءها : « قد والله فسدت فساداً لا أرجوك معه لفلاح ، ولذلك ما أدري بأي لسان أحاورك » وبأي خلق أجاورك » وفي أي حقيقة أشاورك وبأي شيء أداورك . سرّك كفران ولفظك بهتان وسرورك طغيان وحزنك عصيان . . وغزوك رياء وسمعة وحجّك حيلة وخدعة وأحوالك كلها بهرج وزيف ، وأنت لا تحاسب نفسك عليها بلم ولا بكم وكيف »<sup>(24)</sup> .

---

(20) د. زكريا إبراهيم : أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ص 61 (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية 1974).

(21) نفسه ص 61 .

(22) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج 15 ص 20 .

(23) نفسه ج 15 ص 22 .

(24) أبو حيان التوحيدي : الإشارات الألفية ص 85 - 86 .

ومن عمق إحساسه بهذا الذنب أدار وجهه إلى ملكوت الله ، طالباً عنده الأنس الذي فقده في الدنيا ، ضارعاً إليه « اللهم إنا قد أصبحنا غرباء بين خلقك ، فأنسنا في فنائك » اللهم وأمسينا مهجورين عندهم فصلنا بحبائك «<sup>(25)</sup> ويقول أيضاً : « اللهم رحمتك نرجو ، ورأفتك نتمنى ، وإليك نلتفت . . . وباسمك نلهج . . . فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام »<sup>(26)</sup> .

وفي خضم هذه الحياة المضطربة كان لأبي حيان التوحيدي إنتاج وفير لعل الذي بلغنا منه نزر يسير خاصة بعد أن أحرق كتبه .

### مؤلفات أبي حيان

يقول الدكتور زكريا إبراهيم متحدثاً عن إنتاج أبي حيان « . . إن المعروف عن أبي حيان أنه كان غزير الإنتاج » حريصاً على النقل والرواية « محباً للبحث والجدل ولئن كان موضوع هذه الكتب لم يقف عند الفلسفة والأدب ، بل قد اشتد أيضاً إلى الكلام والفقه والشريعة والتصوف والنحو واللغة ، إلا أن أبا حيان قد التزم في معظمها أسلوباً واحداً ألا وهو أسلوب المحاوراة والمسامرة »<sup>(27)</sup> .

وقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه « معجم الأدباء » ثمانية عشر كتاباً لأبي حيان لكنها ليست كل ما وصل إلينا من إنتاجه فقد عثر على بعض آثاره التي وقع تحقيقها وجمعها مثل كتاب الهوامل والشوامل . ونحن سنذكر مؤلفات التوحيدي مع ترتيبها حسب تاريخ نشرها .

1) الصداقة والصدقة : وقد نشره سنة 1301 ، أحمد فارس الشدياق بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية وذيله بنشر رسالة العلوم .

وقد فتح أحمد فارس الشدياق بهذا العمل الباب الأول لتعريف الناس بمؤلفات التوحيدي .

2) المقابسات : تولى تحقيق الكتاب ونشره حسن السندوبي بمصر سنة 1929 . وقد كانت هذه الطبعة مليئة بالأخطاء والتحريف .

(25) نفس المصدر ص 84 .

(26) نفسه ص 364 .

(27) د زكريا إبراهيم . أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ص 88 .

3) الإمتاع والمؤانسة : اضطلع بتحقيقه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين وقد نشرته لأول مرة « لجنة التأليف والترجمة والنشر » بمصر على ثلاثة أجزاء صدرت في ثلاث سنوات : 1939 و 1942 و 1944 .

وسنعود للتعريف بالكتاب تفصيلاً بعد عرض بقية المؤلفات .

4) الإشارات الالهية والأنفاس الروحانية : حققه ونشر الجزء الأول منه سنة 1950 الدكتور عبد الرحمن بدوي .

وهو الكتاب الوحيد الذي بلغنا من مؤلفات أبي حيان في التصوف .

5) الهوامل والشوامل : حققه ونشره الأستاذان أحمد أمين وأحمد الصقر في القاهرة سنة 1951 .

والكتاب في الحقيقة لمؤلفين هما التوحيدي ومسكويه ( المتوفى عام 421 هـ ) فيه أسئلة من أبي حيان هي الهوامل وأجوبة مسكويه عليها وهي الشوامل .

6) ثلاث رسائل : هي - رسالة السقيفة - و- رسالة في علم الكتابة - و- رسالة الحياة - وعني بتحقيقها وطبعها الدكتور إبراهيم الكيلاني بدمشق سنة 1951 .

7) البصائر والذخائر : وقد حققه ونشره الأستاذان أحمد أمين وأحمد الصقر سنة 1953 .

وهو كتاب ضخيم في عشرة أجزاء .

8) مثالب الوزراء : اضطلع بتحقيقه ونشره الدكتور إبراهيم الكيلاني بدمشق سنة 1961 .

وهذا الكتاب ألفه التوحيدي في ذم الوزراء الصاحب بن عباد وابن العميد .

هذا ثبت الكتب المطبوعة من آثار أبي حيان . وبقيت كتب أخرى مخطوطة وأخرى مفقودة . فأما الآثار المخطوطة فهي :

- كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي .

- رسالة لأبي بكر الطالقاني رواها عن أبي حيان التوحيدي « ذكرها بروكلمان ولكننا لا نعرف مضمونها على وجه التحديد »<sup>(28)</sup> .

---

(28) نفس المرجع ص 113

والآثار المفقودة عديدة منها :

تقريظ الجاحظ : وردت منه مقتطفات في معجم الأدباء عند الترجمة لأبي سعيد السيرافي ( المتوفى عام 368 هـ )<sup>(29)</sup> .

- رسالة في ضلالات الفقهاء في المناظرة<sup>(30)</sup> .

- الزلّفى<sup>(31)</sup> .

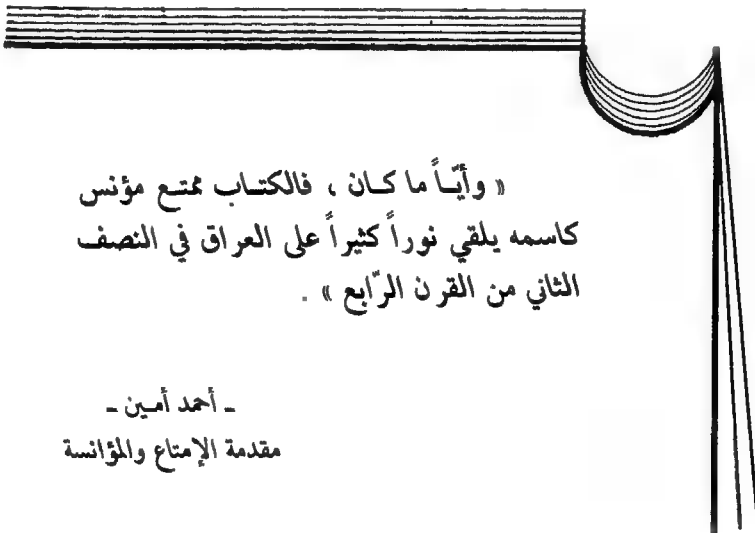
- الرسالة البغدادية<sup>(32)</sup> وذكرت جميعها في معجم الأدباء .

نرى إذن أنّ هذه المؤلفات تعكس ثقافة أبي حيّان الموسوعية فهي متنوعة المواضيع تنوّع تلك الثقافة . ويعدّ كتاب الإمتاع والمؤانسة من أبرزها تعبيراً عن ذلك .

---

(29) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١ ص 150 .

(30) و(31) و(32) المصدر السابق ج 15 ص 7



« وأيّاً ما كان ، فالكتاب ممتع مؤنس  
كاسمه يلقي نوراً كثيراً على العراق في النصف  
الثاني من القرن الرابع » .

- أحمد أمين -  
مقدمة الإمتاع والمؤانسة





## التعريف بكتاب الامتاع والمؤانسة

### 1- قصة التأليف

لقد أورد أبو حيان التوحيدي في مقدّمة الامتاع والمؤانسة الأسباب التي حملته على تأليفه :

فقد كتبه لأبي الوفاء المهندس ( المتوفى عام 388 هـ ) وهو الذي أوصله إلى مجلس ابن سعدان ( المتوفى عام 375 هـ ) وزير صمصام الدولة البويهى « فسامره أبو حيان ليالي عديدة ونسخ له ( كتاب الحيوان ) للجاحظ<sup>(1)</sup> . وغفل أن يطلع أبا الوفاء على مضمون تلك المسامرات » فكان ردّ فعل هذا الأخير سريعاً وعنيفاً إذ أخذ في معاتبة المؤلف عتاباً شديداً وذكره بفضل أياديه عليه وخاصّة منها التوسّط له عند الوزير ابن سعدان الذي أحسن قبوله . ثم هدّده بقطع النعمة عنه إن هو لم يطلعه على كلّ ما دار بينه وبين الوزير من أحاديث ، فقال له : « إنك جهلت أن من قدر على وصولك » يقدر على فصولك ، وأنّ من صعد بك حين أراد ينزل بك إذا شاء<sup>(2)</sup> . وقال أيضاً : « وهذا فراق بيني وبينك ، وآخر كلامي معك وفاتحة يأسى منك . . . إلّا أن تطلعي طلع جميع ما تحاورتما وتجادبتما هذب الحديث عليه<sup>(3)</sup> .

---

(1) أبو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ج 1 ص 5 تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين (منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت لبنان) .

(2) الامتاع ج 1 ص 6 .

(3) نفسه ج 1 ص 6-7 .

وتوسّط هذا العتاب « كلامٌ شديدٌ عبّر من خلاله أبو الوفاء عن احتقاره لأبي حيّان نورد منه ما يلي » . . . إنك تخلو بالوزير أدام الله أيامه ليالي متتابعة ومختلفة فتحديثه بما تُحب وتريد . . . ولعلّك في عرض ذلك تتجاوز طورك بالتشدّق وتجاوز حدّك بالاستحقار وتتطاول إلى ما ليس لك وتغلط في نفسك . . . وأنت غيرَ لا هيئة لك في لقاء الكبراء ومحاوره الوزراء . . . »<sup>(4)</sup> وسرعان ما أجاب التوحيدي صديقه في اعتذار طويل عن هذه الغفلة ؛ ويظهر في كلام المؤلف تذلل كبير وطاعة عمياء لطلب أبي الوفاء . فخاطبه قائلاً : « أنا سامعٌ مطيعٌ وخادمٌ شكور ، لا أشتري سخطك بكل صفراء وببيضاء في الدنيا . ولا أنفر من التزام الذنب والاعتراف بالتقصير » ومثلي ينفو ويجمع ومثلك يعفو ويصفح ، وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت أمر وأنا مؤتمر ، وأنت ممثّل وأنا ممثّل وأنت مصطنع وأنا صنّيع . . . »<sup>(5)</sup> .

ورضي التوحيدي أن ينقل لصديقه كل ما جرى بمجلس الوزير ابن سعدان « واستمهله مدّة حتّى يتمكّن من جمعه وإرساله إليه » وهكذا فعل فقد بعثه إليه على ثلاث مرات مع غلامه « فائق » وطلب منه الاحتفاظ بالرسالة سرّاً وألحّ في هذا الطلب قائلاً في مقدّمة الجزء الثاني من الكتاب : « وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سألتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة » عن عيون الحاسدين العيّابين ، بعيدة عن تناول أيدي المفسدين المنافسين فليس كل قائل يسلم ولا كل سامع ينصف »<sup>(6)</sup> .

إذن يظهر جلياً أن طلب أبي الوفاء هو السبب المباشر في تأليف الكتاب لذلك نلاحظ أنّ الامتناع والموانسة هو ثمرة ضغوط شديدة سلطت على التوحيدي وجعلته يخاف الغد « فلم يتردّد لحظة واحدة في الاستجابة لها . وما من شك في أنّ فشل التوحيدي في صلاته بالوزراء الآخرين ( المهلبّي وابن العميد والصّاحب بن عبّاد ) جعله يخشى تهديد أبي الوفاء .

وقد عمد أبو الوفاء إلى تحديد حرّية المؤلف لغةً ومضموناً . فضبط له بكلّ دقّة الأسلوب الذي يجب عليه اتّباعه في التحرير فقال : « وليكن الحديث على تباعد أطرافه ، واختلاف فنونه مشروحاً ، والاسناد عالياً متصلاً ، والمتن تاماً بيناً » واللفظ

(4) نفسه ج 1 ص 5 .

(5) الامتناع ج 1 ص 87 .

(6) نفسه ج 1 ص 1 .

خفيفاً لطيفاً والتصريح غالباً متصديراً والتعريض قليلاً يسيراً<sup>(7)</sup> كما ضبط له مضمون الكتاب في قوله : « تطلعني طلع جميع ما تحاورتُما وتجاذبتما هذب الحديث عليه » وتصرفتُما في هزله وجده « وخيره وشره ، وطيبه وخبيثه ، وباده ومكتومه حتى كأي كنت شاهداً معكما أوقيماً عليكم أو متوسطاً بينكما<sup>(8)</sup> .

فالكتاب هو وليد التهديد من ناحية والخوف من ناحية أخرى ، وقد ملك فيه أبو الوفاء على أبي حيان كامل حرّيته الفكرية والأسلوبية .

## (2) عدد الأجزاء والليالي

الأجزاء : يبلغ عدد أجزاء الكتاب الذي حققه أحمد أمين وأحمد الزين ثلاثة . وقد رأينا من المفيد إبداء الملاحظات التالية :

أ - أن أبا حيان قد أرسل الكتاب إلى أبي الوفاء على ثلاث مرّات واضحة التقسيم :

القسم الأول : له مقدمة مبدؤها هكذا : « نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين » وله خاتمة أبلغ فيها التوحيدي السلام إلى أبي الوفاء . ( ص 226 ) وقد احتوى هذا القسم على 16 ليلة .

القسم الثاني : له مقدمة يخاطب فيها التوحيدي الشيخ أبا الوفاء ( ص 2 و 1 ) وله خاتمة واضحة أيضاً تبدأ هكذا : هذا الجزء أيها الشيخ . . . هو الجزء الثاني والثالث يتلوه ( ص 164 ) .

القسم الثالث : له مقدمة المخاطب فيهادئها أبو الوفاء المهندس وذيله التوحيدي برسالتين وجههما لابن سعدان وبأخرى وجهها إلى أبي الوفاء .

ب - أن الناسخ قد اجتهد في تقسيم الكتاب ، يقول في نهاية الجزء الثاني «كمل الجزء الثاني من كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي حسب تجزئتنا . ( ص 205 ) واجتهاده هذا جعله يدمج في الجزء الثاني ( حسب تجزئته طبعاً ) مقدمة الجزء الثالث واللييلة التاسعة والعشرين واللييلة الثلاثين وقسماً من اللييلة الواحدة والثلاثين . فيكون أول الجزء الثالث ( بقية اللييلة الحادية والثلاثين ) . واجتهاده قد أفقد الكتاب منهجيته

(7) نفسه ج 1 ص 8 و 9 .

(8) نفسه ج 1 ص 7 .

المسطرة من التوحيدي والتي نجد فيها :

- مقدمة يتلوها ذكر بعض المسامرات مع ابن سعدان ثم خاتمة .

ج - أنَّ المحققين أحمد أمين وأحمد الزين قد أبقيا عند نشر الكتاب على تجزئة الناسخ ولم يجتهدا في إصلاح الخطأ الذي وقع فيه .

فلعلَّ خطأ الناسخ في اجتهاده هو الذي جعل ياقوتا الحموي يعتبر أنَّ الكتاب يقع في جزئين في سياق عرضه لمؤلفات التوحيدي فقال : «ولأبي حيان تصانيف كثيرة منها : كتاب رسالة الصديق والصدّاقة ، كتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي» كتاب الامتناع والمؤانسة جزءان... (9) .

وقد أدّى احترام أحمد أمين وأحمد الزين « لقواعد التحقيق » إلى شيء من الاضطراب في تجزئة الكتاب ، وكان الأجدر بهما إعادة التقسيم إلى أصله مع الإشارة إلى مواطن خطأ الناسخ خاصّة أن التوحيدي كان واضحاً في إشارته إلى بداية كلّ جزء ونهايته .

### الليالي

إنَّ الليلة الأخيرة من الامتناع والمؤانسة تحمل رقم ( أربعين ) فجرى الاعتقاد أنَّ عدد الليالي بالكتاب هو أربعون ليلة . بينما تتبع الكتاب ليلة ليلة ، يجعلنا نقف على تسع وثلاثين ليلة فقط .

وبالتحري وجدنا أنَّ سهواً من المحققين جعلهما يزيدان ليلة غير موجودة بالكتاب ، وهي الليلة الثانية عشرة . فنحن نقرأ في آخر الليلة العاشرة قول أبي حيان « إني قرأت هذا الفصل على الوزير - كتب الله كل شأني له - في ليلتين (10) . فالليلة العاشرة الواردة بالكتاب وجب أن يكون عنوانها « الليلة العاشرة واللييلة الحادية عشرة » . واللييلة التي تليها تكون « الليلة الثانية عشر لكنَّ المحققين يرقبها هنا هكذا » الليلة الثالثة عشرة » ويلاحظان في الحاشية ما يلي : « يلاحظ أننا ذكرنا في الليلة السابقة أنها اللييلة الحادية عشرة » . ( بينما ذكرنا الليلة العاشرة ) . والصواب أنها ليلتان ، الحادية عشرة والثانية عشرة . ( بينما الصواب هو الليلة العاشرة واللييلة الحادية

(9) ياقوت الحموي : معجم الأدياء ج 15 ص 7 .

(10) الامتناع والمؤانسة : ج 1 ص 195 .

عشرة ) . . . ولهذا جعلنا هذه الليلة الثالثة عشرة ( بينما الصّواب هو الليلة الثانية عشرة )<sup>(11)</sup> .

فالْمُؤَكَّد إذن أنّ عدد الليالي بالكتاب لا يتجاوز تسعاً وثلاثين ليلة . هي المادّة التي سنعتمدها في إبراز خصائص المجتمع الإسلامي في القرن الرابع للهجرة وتحديد مواقف التوحيد منها .

### 3) مادة الكتاب

إنّ مواضيع الليالي المذكورة في الكتاب هي ذات مواضيع المجالس التي دارت بين الوزير وأبي حيّان التوحيدي ، وليس له من إضافات عليها إلا مقدمات الأجزاء الثلاثة والرسالتان الموجهتان لابن سعدان ثم الرسالة الموجهة لأبي الوفاء .

ونجد في الكتاب إشارات عديدة إلى أنواع اللقاء بين ابن سعدان المؤلف فقد كانت لهم لقاءات ثنائية ، والدليل على ذلك قول أبي الوفاء يخاطب أبا حيّان « أفكان من حقّي عليك . . أنك تخلو بالوزير - أدام الله أيامه - ليالي متتابعة وأخرى مختلفة »<sup>(12)</sup> .

كما كانت لهم لقاءات يحضرها أناس آخرون ومن الأدلة على ذلك تدخل ابن زرعة في الليلة الثانية والثلاثين في الحديث بين التوحيدي وابن سعدان لشرح أسباب فساد الناس في عصره . قال التوحيدي : « فقال ابن زرعة وكان حاضراً »<sup>(13)</sup> فعبارة وكان حاضراً تدلّ على أنّ الحديث لم يكن ثنائياً . وتدخل نفس الشخص في الحوار مرّة أخرى في نفس الليلة ليواسي ابن سعدان في قلقه من تحمّل أعباء الحكم . « فقال له ابن زرعة »<sup>(14)</sup> فكلمة له تشير إلى الوزير . ومن الأدلة أيضاً إشارة التوحيدي إلى حضور رجل لا يحبّه ولم يذكر اسمه : « وقال بعض من حضر المجلس - وهو الرجل القدم الثقيل - »<sup>(15)</sup> .

وفي هذه المجالس كان ابن سعدان يحدّد المواضيع ، بأسئلة يطرحها ويرغب في الاستماع إلى أجوبة عنها ، وأكثر الأجوبة كانت مرتجلة إلا نادراً . ففي بعض الأحيان

(11) نفسه ج 1 ص 198 (الحاشية رقم 1)

(12) نفسه ج 1 ص 5 .

(13) نفسه ج 3 ص 64 .

(14) نفسه ج 3 ص 66 .

(15) نفسه ج 2 ص 112 .

كان الوزير يحدّد للمؤلف الموضوع مسبقاً حتّى يستعدّ للإجابة عنه في الليلة الموالية فقد خاطبه في نهاية الليلة الثامنة بقوله : « وإذا حضرت في الليلة القادمة أخذنا في حديث الخلق والخلق - إن شاء الله - وأنا أزودك هذا الاعلام ليكون باعثاً لك على أخذ العتاد بعد اختباره في صدرك » . (16)

وقد استمدّ أبو حيان مادة أجوبته من ثقافته الواسعة ، فنراه يرجع إلى التراث العربي القديم أو إلى ما عرّف من الثقافات الأجنبية وخاصة منها الثقافة اليونانية . وقد اعتمد أيضاً على آرائه الشخصية للإجابة عن بعض الأسئلة كما استمدّ مادة أجوبته من آراء مفكرين معاصرين له . أشهرهم على الإطلاق أبو سليمان السجستاني . حتّى أنّ الكتاب جاء زائراً بآرائه في مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية والفكرية .

---

(16) نفسه ج 1 ص 143 .

## البَابُ الْأَوَّلُ

### خصائص الحياة السياسية ومواقف أبي حيان التوحيدي منها

موت الرؤساء خير من رئاسة السفلة .

- أفلاطون -





إن الحديث عن السياسة في كتاب - الامتناع والمؤانسة - أمرٌ هامٌ ومثير لأسباب كثيرة :

- فالسياسة قد احتلت مجالاً واسعاً من أحاديث أبي حيان التوحيدي والوزير ابن سعدان وقد تنوّعت هذه الأحاديث فاهتمت بالحياة السياسية اليومية داخل الدولة وبمشاغل الناس كما اهتمت بفلسفة الحكم من خلال الحديث عن العلاقة بين الشريعة والسياسة أو الحديث عن علاقة السلطان بالرعية .

- ويبرز كتاب الامتناع والمؤانسة أن الاهتمام بالقضايا السياسية والانشغال بما يجري داخل الدولة لم يكن مقصوراً على طبقة دُون أخرى أو فئة دون فئة فقد خاضت العامة في السياسة كما خاضت فيها الخاصة « واهتمّ بقضاياها وأحداثها حتى المتصوّفون مع زعمهم الإعراض عن أحوال الدنيا والتفرّع للتعبّد .

- ولهذه الأسباب كانت السياسة هي المؤثر الأساسي في أغلب مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وذلك ما يزيد الحديث عنها في الكتاب أهمية .

- وما يزيد الجانب السياسي في الأثر أهمية ، أن أبا حيان التوحيدي كان في مسامرته للوزير صاحب رأي في الأحداث السياسية الآتية داخل الدولة وفي القضايا السياسية الجهرية المتعلقة بنظام الحكم وبدعائمه ، وهو إلى جانب ذلك كان كثيراً ما يتفعل لما يعيش ويسمع ويتخذ مواقف سياسية جريئة ويصدّر أحكاماً في رجال سياسيين اشتهروا في عصره كالصاحب بن عباد وابن العميد وابن سعدان مُسامره .

- ولم يكن مجال الانشغال بالسياسة في الكتاب مقصوراً على ليالي السمر بين ابن سعدان والتوحيدي بل تجاوزه إلى أقسام أخرى من الأثر كالمقدمة أو الرسائل اللتين ذيل بها التوحيدي الكتاب ووجهها إلى ابن سعدان .

وانطلاقاً من هذه الأهمية ركزنا العمل على إبراز كل مظاهر الحياة السياسية واستقراؤها ثم حاولنا استخلاص سميات العصر السياسية فوقنا على خاصيتين هما :

- التوتّر السياسي .

- والفساد السياسي .

وتجمع كلّ واحدة منها عدّة ظواهر سياسية . ثم بعد ذلك بحثنا في مواقف المؤلف السياسية وفي وجه التعبير عنها .

إنّ أبرز ما يميّز الحياة السياسية كما تتجلى في كتاب الإمتاع والمؤانسة هو التوتّر السياسي الذي سيطر على كلّ أوضاع البلاد خارجياً وداخلياً حتى صارت الأمور السياسية من الشواغل الأولى للرعية من ناحية - على اختلاف مشاربها ومذاهبها - وللحكّام من ناحية أخرى . ويتجلى هذا التوتّر في عدّة مظاهر هامة كثيراً ما تواتر ذكرها بالكتاب :

فقد تحدّث أبو حيان عن فتنة خارجية عاشتها البلاد في أواخر سنة 362 للهجرة .

هاجم خلالها الرّوم الثغور الإسلامية وأدخلوا الرعب والهلح على الناس بمدينتي الموصل وبغداد . فتوترت لذلك أسس العلاقة بين الرعية والملك عزّ الدولة<sup>(1)</sup> وتصدّع النّظام الاجتماعي بانقسام الخاصّة والعامة واستغلال العيارين لذلك التصدّع لشنّ الغارات والنهب وسفك الدماء<sup>(2)</sup> .

وقد أبرزت هذه الهجمة ضعف تنظيم المسلمين داخلياً ؛ وانعدام الأمن الخارجي وهو ما يبيّن تراجع القوة الإسلامية التي كانت هي الفاتحة والمبادرة بالهجوم أمام الرّوم . فأصبحت قوة غير قادرة حتى على حماية الثغور ومن دلائل التوتّر السياسي الذي يصوّره الكتاب كثرة الفتن الداخلية ، وهي فتن مسلّحة فيها القتل والنهب ومن تلك الفتن ما جرى بخراسان سنة 370 للهجرة .

(1) هو الأمير بختيار الذي تلقب بعز الدولة . خلف والده معز الدولة في الامارة على بغداد سنة 356 هـ في عهد الخليفة الطائع وأوكل الحكم للوزراء وقد عرفت البلاد في عهده فتناً عديدة بين أهل السنة وأهل الشيعة - قتل عضو الدولة سنة 366 هـ . ونكّل به .

(2) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة (الليلة 38 - جزء 3 من صفحة 150 الى 162) .

وهي حرب داخل الدولة السامانية وقع الاستعداد لها عسكرياً ، وأنفقت في سبيلها أموال لإعداد الجيش وتزيينه : « فقد ورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة وعدة عميمة وزينة فاخرة وهيئة باهرة »<sup>(3)</sup> وسبب هذه الفتنة كثرة الجور الذي بلبل الدولة ، وهي عبارة عن تمرد عسكري ضد هذا الظلم . وقد توترت نتيجة لذلك مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وما من شك في أن أبرز فتنة داخلية تؤكد التوتر السياسي بالبلاد هي ( ثورة العيارين ) سنة 362 للهجرة ، فقد استغل العيارون انقسام الخاصة والعامة وانشغال الناس بتدبير طريقة لمعالجة غزو الروم للبلاد للنهب والسلب والغارة وسفك الدماء فقد شنت الغارة ، واتصل النهب ، وتواصل الحريق<sup>(4)</sup> .

وإن في ذلك لأبرز صورة عن مدى التفكك السياسي بالبلاد حتى في أخرج الأوقات ، وفي أشدها حاجة إلى التآلف والتعاون . ونتيجة لهذه الفتنة انقلبت القيم السياسية وظهر من العيارين قواد كثيرون يحدثنا الترحيدي عن واحد منهم « وهو أسود الزبد ، فقد كان هذا الرجل قبل الفتنة لا يؤبه له ولا يبالي به »<sup>(5)</sup> لسوء حاله فهو « عريان لا يتوارى إلا بخرقه »<sup>(6)</sup> . إلا أن منزلته انقلبت من حال إلى حال بعد الفتنة فبعدما نهب وأغار « صبح وجهه وعذب لفظه وحسن جسمه وعشيق وعشيق . . . وأطاعه رجال وأعطاهم وفرق فيهم وطلب الرئاسة عليهم ( حتى ) صار جانبه لا يرام وحماه لا يضام »<sup>(7)</sup> . وهذا الانقلاب في القيم السياسية يدعم معنى التوتر السياسي .

فهل من وضع أشد توتراً من وضع تفقد فيه البلاد أمنها السياسي الداخلي وتتحول فيه الأوضاع تحولاً سريعاً بواسطة أخذ السيوف وشحذها والنهب والغارة والسلب ؟ .

وليست الفتن الداخلية والخارجية ونتائجها هي الشاهد الوحيد على توتر الحالة السياسية بالبلاد . فالعلاقة بين الحكام والرعية تؤكد هذا التوتر والامتناع والموانسة ثري بالشواهد على ذلك . فقد صور العامة ضاجة وثائرة على الحكام في مناسبات كثيرة وذلك ما يبين ضجرتها من سياستهم رغم اختلاف أسباب كل ثورة : فالناس قد صاحوا وضجوا خلال هجوم الروم على المسلمين واستغلال العيارين الفرصة للعبث في البلاد ، وأنكروا على عز الدولة لإخلاله بواجباته السياسية إذ أنه كان زمن الفتنة مشغولاً في مدينة

(3) الامتاع : جزء 3 صفحة 91 .

(4) و(5) و(6) جزء 3 صفحة 160 .

(7) جزء 3 صفحة 160 - 161 .

الكوفة « لانهاكه في القَصْف والعزف واعراضه عن المصالح الدينية والخيرات السياسية »<sup>(8)</sup> ، وكونوا جماعة من العلماء ليلقوا عز الدولة ويبلغوه غضب العامة واستنكارها لسياسيته وتهديدها له يخلع طاعتها عنه إن هو لم يتدارك الأمر بحسن السياسة . فهم يقولون : « لو كان لنا خليفة أو أمير أو ناظر سائس لم يفض الأمر إلى هذه الشناعة ، وأن أمير المؤمنين المطيع لله إنما ولاءه ما وراء بابه لِيَتَّقِظَ في ليلة متفكراً في مصالح الرعايا ، وينفذ في نهاره أمراً وناهياً ما يعود بمراشد الدين ومنافع الدانين والقاصين وإلا فلا طاعة »<sup>(9)</sup> .

إن في كلام الناس وعياً واضحاً بفساد سياسة عز الدولة الدينية والدينية ، وما يؤكد عمق هذا الوعي أن هذه الثورة على الحاكم كانت دوافعها الخوف على مستقبل الدولة الإسلامية وهي لذلك دوافع حضارية ، وأنها حملت نظرة سياسية واعية بواجبات الحاكم ودعوة إلى تدارك الوضع قبل إعلان العصيان .

فكيف كان استقبال عز الدولة لرسول الرعية ؟

يقول أبو حيان واصفاً ذلك : « وسارت الجماعة إلى الكوفة ولحقت عز الدولة في التصيّد - وانتظرت - فلما عاد قامت في وجهه واستأذنت في الوصول إليه على خلوة وسكون بال وقلة شغل ، فلم يلتفت إليهم ولا عاج عليهم - وكان وافر الحظ من سوء الأدب قليل التحاشي من أهل الفضل والحكمة - »<sup>(10)</sup> ، وتؤكد الجملة الأخيرة في هذا الشاهد فساد أخلاق عز الدولة مع رسل الرعية وفي ذلك دليل كافٍ على توتر العلاقة بينه وبين الناس . إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد استمع إلى آراء أهل الفضل والحكمة وإلى تحريضهم إياه على تدارك الأوضاع وتنبهه إلى المخاطر والأهوال التي لحقت الناس واستمع أيضاً إلى استعدادهم لبذل الأموال لتدارك الأمر . « فإن كان في المال قلة فخذ من موسرينا ومن له فضل في حاله ، فإنه يفرج عنه طاعة لك وطمعاً في ما عند الله من الثواب »<sup>(11)</sup> ، وبعدما تكلم أهل الفضل والحكمة كنّا نتوقع استعداداً من عز الدولة لتدارك الأمر ومرونة في تلقي نصائحهم فإذا به يندفع غاضباً منكراً عليهم كلامهم شامئاً أبا بكر الرازي ( توفي عام 370 هـ ) معرضاً عن نصائحه بقوله : « يلقاني بوجه صلب

(8) نفسه ج 3 ص 152 . سنقتصر على ذكر الجزء والصيغة إذا ما تعلقت الإحالة بكتاب الإمتاع والمؤانسة .

(9) ج 3 ص 153

(10) ج 3 ص 154

(11) ج 3 ص 156

ولسان هَذَا يري من نفسه أنه الحسن البصري يعظ الحجاج ابن يوسف أو اصل بن عطاء يأمر بالعرف أو ابن السماك يهرب الفجار هذا قبيح ، ولو سكت عن هذا لكان عيأ وعجزاً<sup>(12)</sup> . وقد رفض عز الدولة أن يكون المسؤول عن فساد الأحوال معللاً موقفه بالقول « كما تكونون يوئى عليكم . . . والله لو لم تكونوا أشباهي لما وليتكم »<sup>(13)</sup> . فأين التوتر السياسي في موقف عز الدولة ؟ .

إن الأمير قد رفض رفضاً كاملاً جميع ما دعاه إليه الحكماء والعلماء وكأن به حساسية خاصة للنقد الصادر عن الرعية ، وهو يرى في السكوت عن ذلك عيأ وعجزاً فكأن هيئة الحكم تقف حاجزاً بينه وبين رعاياه . فهل من توتر أشد من ذلك الذي ينشأ عن انعدام التواصل بين الحاكم والمحكومين في أخرج المواقف التي تعيشها البلاد وألحها ضرورة على التشاور والتآزر ؟ . ومن الدلائل الأخرى على صورة هذا التوتر ما رواه التوحيدي في الليلة السابعة عشرة من ثورة العامة على سياسة الوزير ابن سعدان واحتجاجهم على سوء أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية فقد « صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر تهتك صاحب العيال »<sup>(14)</sup> ، إلا أن الوزير لم يسمع منهم شكوتهم و « أجابهم بجواب مر مع قطوب الوجه وإظهار التبرم بالاستغاثة بعد لم تأكلوا النخالة »<sup>(15)</sup> .

وقد كذب الوزير أن يكون اتخذ ذلك الموقف من الرعية وأرجع ذلك إلى كيد من أعدائه لا فساد سمعته عند العامة ، لكنه لم يكذب أن تكون العامة قد ثارت في وجهه وهو ما لا ينفي التوتر بين الحاكم والرعية .

ويبرز لنا التوحيدي ضجر الحكام من لهج العامة بأخبارهم وتتبعها لسيرتهم فابن سعدان ضاق صدره بالغيظ عن العامة لتتبعها أسرار السياسة حتى قال : « إني لأهَم في الوقت بعد الوقت بقطع السنة وأيد وأرجل وتنكيل شديد لعل ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة ويقطع هذه العادة »<sup>(16)</sup> .

إننا نرى في هذا الغيظ الذي ملأ الصدور وهذا الضجر من العامة خير دليل على انتفاء الانبساط واللين والرفقة بين الحكام والرعايا . وقد صدر هذا الأمر عن ابن سعدان

(12) و(13) ح 3 ص 158 .

(14) و(15) ج 2 ص 26 .

(16) ج 3 ص 185 - 186 .

الذي قال فيه التوحيدي : « قد شاهدت ناساً في السفر والحضر ، صغاراً وكباراً وأوساطاً » فما شاهدت من يدين بالمجد ويتحلّى بالجدو ويرتدي بالعفو ويتأزر بالحلم . . . . . غيرك »<sup>(17)</sup> . فكيف يكون الأمر . إذن مع ساسة عرفوا بالشدة والغلظة وكثرة الجور ؟ .

إنّ هذا التنافر في العلاقة بين الحكام والرعية قد وقع استغلاله من العناصر المناهضة للحكم للارجاف وبث الدعايات وفساد الالفة وهو ما يزيد الحياة السياسية توتراً . فقد كثرت الأراجيف المشوهة لسياسة ابن سعدان من مناهضيه نخص بالذكر منهم عبد العزيز بن يوسف<sup>(18)</sup> الذي روج بين الناس أنّ للوزير علاقات سرّية مع أعداء الدولة من القرامطة سيفراً إليهم إن ذمّه أمر<sup>(19)</sup> . وهو الذي بث في الناس كذلك أنّ ابن سعدان قد أساء مواجهة احتجاج العامة ( بباب الطاق ) لما اشتكوا له فاقتهم وعسر معيشتهم . وأكدّ أبو سليمان السجستاني وجود الدسائس ضد الوزير حتى من أقرب الناس إليه وذلك بقوله : « الأولياء أعداء والأعداء جهّال ونصيحه غاش وثقته مُريب »<sup>(20)</sup> .

وليس هناك شكّ في أنّ هذه الشائعات ما كان ليكتب لها النجاح والرواج ولهج الناس بها لولا فساد العلاقة بين الراعي والرعية . والوزير ابن سعدان كان شاعراً بتلك الدسائس فأصابه القلق وأفسد عليه نعمة الحياة . والقلق توتر نفسي يجعل ممارسة الحكم أمراً عسيراً . يقول ابن سعدان واصفاً الدسائس التي تحاك له : « أرى واحداً في قتل حبلى وآخر في حفر بئر وآخر في نصب فتّح وآخر في دسّ حيلة . . . . . وآخر في شحذ حديد »<sup>(21)</sup> .

من الطبيعي إذن أن يكون هذا الجو المتوتر باعثاً على الانشغال بالسياسة وبكل جزئياتها من الخاصة والعامة ويؤكد أبو حيّان بصورة جلية هذا المظهر في عديد المواضيع .

فهؤلاء رسل سجستان - وهم من الأدباء والعلماء - يعقدون مجلس غناء ورقص

(17) ج 3 ص 223 .

(18) هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف أحد كتاب الدولة البويهية « وهو أبرز عدو سياسي لابن سعدان ، دسّ له عند صمصام الدولة حتى سجنه ثم قتله وتولّى الوزارة بعده سنة 375 هـ . ( عن حاشية الامتاع والمؤانسة

ج 1 ص 66 ) .

(19) ج 1 ص 48 .

(20) ج 2 ص 115 .

(21) ج 3 ص 64 .

يلهجون فيه بنقد سياسة الوزير ابن سعدان مع حاشيته واعتبارها أصل الفساد في الدولة<sup>(22)</sup> .

ومن طريف الأمور أن المتصوفين على فقرهم الكبير وضنك أحوالهم ورغم ادعائهم الاعراض عن مشاغل الدنيا وتفرغهم للعبادة لم يسلموا من آفة الاهتمام بالأخبار السياسية والحرص على تتبعها وكان ذلك خلال الثورة التي اندلعت بخراسان سنة 370 للهجرة داخل الدولة السامانية . فقد كانت جماعة من المتصوفين تخوض في حديث آل سامان والوارد من جهتهم<sup>(23)</sup> . حتى شعر بعضهم أنهم يخوضون في الأحاديث التي ليس لهم فيها ناقة ولا جمل ولا حظ ولا أمل<sup>(24)</sup> . فطلبوا فرجة عند متصوف آخر هو أبو زكريا الزاهد ليتلها عنده عن السياسة وليقتدوا بسيرته وتعبده ، فما أن دخلوا عليه حتى بادروهم بالسؤال عن أخبار الفتنة قائلاً : «حدثوني ما الذي سمعتم وماذا بلغكم من حديث الناس وأمر هؤلاء السلاطين » فرجوا عني وقولوا لي ما عندكم فلا تكتُموني شيئاً فما لي والله مرعى في هذه الأيام إلا ما اتصل بحديثهم<sup>(25)</sup> . فتركوه مستوحشين وقصدوا شيخاً آخر هو أبو عمرو الزاهد . فطلب منهم مطلب الشيخ الأول فغادروه وانطلقوا إلى زاهد ثالث يسمى أبا الحسن الضرير عرف بزهده وعبادته وتوحده وشغله بنفسه فلما جلسوا إليه قال لهم : « أمن السماء نزلتم عليّ ؟ والله لكأني وجدت بكم مأمولي » وأحرزت غاية سؤالي قولوا لي غير محتشمين ما عندكم من أحاديث الناس ؟ وما عزم عليه هذا الوارد ؟ وما يقال في أمر ذلك الهارب إلى قايين ؟ وما السائع من الأخبار وما يتهمس به ناس دون ناس . .<sup>(26)</sup> .

هذه القصة الطويلة تؤكد أن الانشغال بالأخبار السياسية لم يكن مقصوراً على فئة دون أخرى . وهو ما يجعل الحياة السياسية بالبلاد متوترة أشد التوتر . على أن التوتر السياسي في ذاته قد لا يكون عنصراً سلبياً ، فقد تتوتر الحياة السياسية في فترات التحول داخل البلاد كالثورات التي تسعى إلى اصلاح ما فسد من شؤون السياسة ، أو في حالات تجند الناس لمواجهة عدو أو غيره يهدد أمن الناس وأمن الدولة .

وأما التوتر السياسي من خلال كتاب الامتاع والموانسة فلم يكن كذلك إذ أن من

(22) ج 1 من ص 42 إلى ص 49 ( الليلة الثالثة ) .

(23) و(24) ج 3 ص 92 .

(25) ج 3 ص 93 .

(26) ج 3 ص 94 .

أهم أسبابه ومظاهره الفساد السياسي الذي عمّ البلاد . فما هي مظاهر ذلك الفساد التي يصورها الكتاب ؟ .

تبدو مظاهر الفساد السياسي متعددة ومتنوعة من خلال الكتاب وأول ما يبادرنا منها الفراغ السياسي الناتج عن تخلي الحكام عن واجباتهم التي كلفوا بها . فالخليفة في النظام الإسلامي هو المباشر الرئيسي لحياة المسلمين الدينية والمدنية ، إلا أن الخلفاء قد تخلّوا عن مباشرة هذه المسؤولية وفوضوها إلى الوزراء الذين كثيراً ما استبدّوا بالسلطة وأطلقوا العنان لشهواتهم ولسلطانهم بالمتعة والجور .

ويبدو هذا الفراغ شاملاً في قول العامة تشكوه وتبين نتائجه خلال هجوم الروم على المسلمين سنة 362 هـ . « لو كان لنا خليفة أو أمير أو ناظر سائس لم يفض الأمر إلى هذه الشناعة »<sup>(27)</sup> فهذه الجملة تعترف صراحة بأن المسؤولين عن شؤون البلاد سياسياً لم يكونوا مباشرين لمهامهم : والكلام الذي يتلوها يدعم هذا الرأي ، فالعامة تتحدث عن عز الدولة وعن تفريطه في واجباته السياسية التي فوضها له الخليفة المطيع لله : « وأن أمير المؤمنين المطيع لله إنما ولاءه ما وراء بابه ليتيقظ في ليله » متفكراً في مصالح الرعايا ، وينفذ في نهاره أمراً ونهاياً ما يعود بمراشد الدين ومنافع الدّانين والقاصين<sup>(28)</sup> . إذن فرط عز الدولة في مهامه الجوهرية وأقبل على شهواته فترك مركز الخلافة بغداد وسافر إلى الكوفة للمصيد والتمتع بالغناء وغيره من الملذّات « فقد أضرب السلطان عن هذا الحديث لانهاكه في القصف والعزف وإعراضه عن المصالح الدينية والخيرات السياسية »<sup>(29)</sup> .

وفي موضع آخر من الكتاب يبين التوحيدى هذا الفراغ السياسي عند حديثه عن الصّاحب بن عباد ( المتوفى عام 385 هـ ) فقد فوّض له الملك الذي استوزره<sup>(30)</sup> الأمر ورفض أن يسمع فيه انتقادات الناس ففسدت سياسته وطمع وتجرّب وقتل خلقاً وأهلك ناساً<sup>(31)</sup> .

وفي الكتاب يقصّ ابن سعدان كيف فوّض له صمصام الدولة مقاليد الحكم قائلاً له : « أمض هذا كله ، واصنع فيه ما ترى ، وما فوق يدك يد ولا عليك لأحد

(27) ج 3 ص 153 .

(28) ج 3 ص 153 .

(29) ج 3 ص 152 .

(30) لقد استوزره ملكان هما مؤيد الدولة وفخر الدولة والكتاب لا يجدد الملك المقصود .

(31) ج 1 ص 55 .



اعتراض<sup>(32)</sup> والعجيب في الأمر أن ابن سعدان قد وضع شروطاً لتحمل المسؤولية السياسية عرضها على صاحبه « فقبلها وأمضى عليها من دون أن ينظر فيها أو يناقشها في أمر منها » كنت عرضت على صاحبي تذكرة مشتملة على أشياء مختلفة ، فأمضاها كلها ، ولم يناظرني في شيء منها ولا ناظرني عليها<sup>(33)</sup> .

هذه أمثلة دالة على عمق الفراغ السياسي في الدولة . فكيف تعتبر ذلك فساداً ؟ ان الفساد نحدده بالنظر في نتائج ذلك الفراغ ، وهي بيئة في الكتاب فمن أهمها :

- الاضطراب والخوف والهلل الذي سيطر على الناس خلال تهايج الروم على المسلمين سنة 362 هـ وانقسام الخاصة إلى فرقتين وكذلك العامة . ولا شك أن سائساً يفترط في مصالح الرعايا ويتفرغ لشهواته فيفقد المجتمع أمنه ووحدته يعدّ تفريطه في واجبه فساداً كبيراً إذ السائس الصالح هو الذي يخلص في مباشرة مهامه .

- الاستبداد بالرأي الذي برز في سلوك الصاحب بن عباد لأن الملك الذي استوزره عول عليه<sup>(34)</sup> . والاستبداد بالرأي نقيضة آفاتنا عديدة وأبرزها الجور . يقول أبو حيان مبرزاً تعصب الصاحب ونتائج ذلك : « مغلوب بحرارة الرأس ، سريع الغضب بعيد الفئحة قريب الطيرة ، حسود حقوق حديد . . . وقد قتل خلقاً وأهلك ناساً ونفى أمة تعنتاً وتجبّراً وزهواً »<sup>(35)</sup> .

- فتح الباب أمام المطامع السياسية « إذ أن الفراغ الحاصل جعل الحاكم ضعيف الأثر في البلاد فتسعى النفوس إلى الإطاحة به » يشهد على ذلك ما حصل لابن سعدان من معارضة شديدة ومن تأمر عليه عند الملك الذي استوزره - صمصام الدولة - حتى سجنه وقتله . وما كانت هذه الوشايات لتجد صداها في قلب الملك لو كان عليماً بما يجري داخل البلاد ولو كان متابعاً لسياسة ابن سعدان .

أفلا تكفي هذه النتائج لتجعل الفراغ السياسي بالبلاد فساداً عظيماً ؟ .

ثم انه من المظاهر البيّنة - ولعلها نتيجة الفراغ السياسي - فساد الحاشية ونسوق على ذلك الأمثلة التالية :

---

(32) ج 3 ص 64 .

(33) ج 3 ص 65 .

(34) ج 1 ص 60 .

(35) ج 1 ص 55 .

فالشهادات العديدة في الامتاع والمؤانسة تؤكد فساد حاشية الوزير ابن سعدان فقد نقد ابن برمويه في مجلس رُسُل سجستان أفراد حاشية الوزير فقال عنهم « هؤلاء سباع ضارية وكلاب عاوية وعقارب لساعة وأفاع نهاشة »<sup>(36)</sup> وبين مفاسد كل واحد منهم ، فابن شاهويه<sup>(37)</sup> فاسد الأخلاق لأنه شديد التمويه لا يرجع إلى ودّ صادق<sup>(38)</sup> وبهرام<sup>(39)</sup> . رجل فاسد يخون سيده وصاحب نعمته فهو يحضّ عليه في كلّ ما هو مديره ومدبّره .<sup>(40)</sup> وابن مكّيخا<sup>(41)</sup> أرعن خسيس همّه أن يتحصّى دَنّ الشراب ثم يسقط كالجدع اليابس لا لسان ولا إنسان<sup>(42)</sup> وابن طاهر<sup>(43)</sup> ينتحل الخير في الدولة لنفسه ويتبرأ من الشرّ فينسبه لابن سعدان .

وقد أكد أبو سليمان السجستاني فساد الحاشية وحملها مسؤولية الفساد بالبلاد فقال : « ومنابع الفساد ومنابت التخليط كلها من الحاشية التي لا تعرف نظام الدولة ولا استقامة المملكة وإنما سؤلها تعجيل حظّ وإن كان نزرًا واستلاب درهم وإن كان زيفاً »<sup>(44)</sup> .

وتحدّث التوحيدي عن حاشية الصّاحب بن عباد مبرزاً مفاسدها السياسية والأخلاقية . فأفرادها في نظره ينافقون الصّاحب ويمارونه ويغالون في مدحه وهم لم يعارضوه يوماً في رأي أو فعل ففسدت سياسته وطمع وتجبّر . ومن أفراد هذه الحاشية يتحدث المؤلف عن رجل اسمه الداركي<sup>(45)</sup> « يأكل الدنيا بالدين ويغلب عليه اللواط ،

(36) ج 1 ص 45 .

(37) كان عاملاً لصمصام الدولة « قام بالدعوى له في عمان حتى أذعنت له سنة 374 هـ ثم غضب عليه صمصام الدولة فحبسه ثم عفا عنه سنة 375 هـ (حاشية الامتاع والمؤانسة ج 1 ص 43) .

(38) ج 1 ص 44 .

(39) هو أبو سعيد بهرام بن أردشير ، كان من رجالات صمصام الدولة ومن أكبر أصدقاء ابن سعدان . وقد سجن مع ابن سعدان ثم قتل معه سنة 376 هـ . ( عن حاشية الامتاع والمؤانسة ج 1 ص 43 ) .

(40) ج 1 ص 44 .

(41) كان ابن علي بن مكّيخا صاحب ديوان الخزائن لعضد الدولة ثم عمل بعده لصمصام الدولة .

(42) ج 1 ص 45 .

(43) كان من رجالات صمصام الدولة تمّ قتله سنة 380 هـ .

(44) ج 2 ص 116 .

(45) هو أبو القاسم الداركي ، أحد فقهاء الشافعية وهو بغدادي « أقام ببغداد مدة ثم انتهى إليه التدريس ببغداد وأخذ عنه عاتمة شيوخها توفي عام 375 هـ ( أنظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج 2 ص 361 نشر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الأولى سنة 1948 .

ولا يرجع إلى ثقة وأمانة ولقد تهتكت ينسابور قديماً وبيغداد حديثاً<sup>(46)</sup> ورغم هذه المفاصد الأخلاقية فإنَّ الصَّاحِب بن عبَّاد قرَّبه وجعله قاضياً بالرَّي ليكون داعية له ونائباً عنه<sup>(47)</sup> فاستغلَّ منصبه ذلك للنهب حتى صار «قارون» ثراء ورتبة .

وكثيراً ما كان لأفراد الحاشية تأثير واضح في الحياة السياسية لاتصالهم بحكَّام عزفوا عن ممارسة واجباتهم وتلهوا عنها بالمجون والهزل ، فهذا أبو إسحاق النصيبي من حاشية كاتب فخر الدولة بهمدان حمل صاحبه على ظلم الرعية وغبنها : « ولقد أضلَّ بهمدان كاتب فخر الدولة ابن المرزبان . وحمله على قلة الاكثراث بظلم الرعية وأراه أنَّه لا حرج عليه في غبنهم لأنهم بهائم »<sup>(48)</sup> .

هذه الأمثلة تؤكِّد بوضوح فساد الحاشية أخلاقياً وسياسياً وإذا علمنا مدى تأثير الحاشية في مجرى السياسة تصوَّرنَا نتائج تأثير أناس يتهاونون بالقيم الأخلاقية ويستغلون مراتبهم للإثراء واستلاب المال . وذلك هو عين الفساد .

لكنَّ التلازم بين فساد الحكَّام وفساد الحاشية يبدو أمراً طبيعياً . فهل يمكن لرجل خلع عنه أمانة السياسة وبهاء الأخلاق أن يتخذ حاشية من الرِّجال الصالحين ؟

ولهذا التلازم نتائج واضحة أبان عنها الكتاب أبرزها الجور وهو أظهر المفاصد وأعمقها أثراً في حياة الناس وقد أقرَّ أبو حيان في مقدمة الكتاب خلو العصر من الحكام العادلين كالذين ازدان بهم العصر الإسلامي الأوَّل والذين كانوا إذا ولوا عدلوا وإذا ملكوا أفضلوا<sup>(49)</sup> . إنَّ في هذا الإقرار اعترافاً ضمناً بغلبة الجور على الحكَّام في سياستهم الناس . إلَّا أنَّ الأمثلة على ظلم الحكَّام تبدو أوضح داخل الكتاب . فالصاحب بن عبَّاد « لا يرجع إلى الرقة والرافة والرَّحمة ( وهي شروط الحكم والعدل في رجل السياسة ) والناس كلهم محجمون عنه لجراته وسلطته واقتداره وبسطته » شديد العقاب طفيف الثواب طويل العتاب . . . وقد قتل خلقاً وأهلك ناساً ونفى أمة نخوة وتعتنَّ وتجبَّراً وزهواً<sup>(50)</sup> والوزير محمد بن بقية « طغى وبغى واقتحم ظلمات الظلم والعسف وطار بجناح اللهو والعزف »<sup>(51)</sup> . وأبلغ درجات الظلم هي القتل بلا ذنب

(46) و(47) و(48) ج 1 ص 141 .

(49) ج 1 ص 17 .

(50) ج 1 ص 55 .

(51) ج 3 ص 216 .

والأمثلة على ذلك من خلال الامتاع والمؤانسة بيّنة . فأبو الفتح بن العميد ( المتوفى عام 366 هـ ) قد قتل رسول أحد الساسة إليه ظلاً<sup>(52)</sup> ومحمد بن بقية : « قد قتل ابن السراج بلا ذنب والجرجرائي بلا حجة »<sup>(53)</sup> .

فقتله عضد الدولة وصلبه ببغداد<sup>(54)</sup> .

ومن علامات الفساد داخل البلاد الناتج عن الفراغ السياسي وعن الجور انقسام الناس خاصتهم وعامتهم . إلى تكتلات - مذهبية سياسية - يقول عنها أبو حيان : « لا يحصي عددها إلا الله »<sup>(55)</sup> وقد اتخذ الانقسام عدّة صور مختلفة فهو انقسام هيكلي في صلب خلافة واحدة ، ويظهر ذلك من تعدّد الملوك وتعدّد الدّول الذين ذكرهم التوحيدى فهو يتحدث عن ملوك آل سامان<sup>(56)</sup> وعن ملك الديلم من آذربيجان<sup>(57)</sup> وعن أبي جعفر ملك سجستان<sup>(58)</sup> الخ . . .

وهو انقسام سياسي داخل الخاصة يبرز من خلال الصّراعات الحادّة من أجل السلطة . وقد أذكى هذا الصّراع بثّ الدّعايات والأكاذيب واستهالة العامّة . فابن يوسف مثلاً بثّ في العامّة أنّ ابن سعدان يزدرى ولا يأبه بشكواها له الفقر والخصاصة<sup>(59)</sup> ، فما كان من الوزير إلا أن كذب الإشاعة واسترضى العامّة بالنظر في أحوالها وتخفيض أسعار الخبز . يقول : « والله لأنظرنّ لها وللفقراء بمال أطلقه من الخزانة وأرسم ببيع الخبز ثمانية بدرهم ويصل ذلك إلى الفقراء في كلّ محلّة »<sup>(60)</sup> . إن انقساماً بهذه الصورة يعتبر من مظاهر الفساد لأنّه يبعد الاستقرار عن البلاد ويجعل الحكام يشغلون بقمع أعدائهم بدل أن يتفرّغوا لمهامهم .

وفعلًا فإننا نرى أنّ أبرز نتيجة لهذا الفساد هي انعدام الأمن عند الحكام والمحكوم . ولا يخلو الكتاب من تصوير لهذا المظهر في مواضع عديدة . فالحكّام غير مطمئنين إلى الغد فنجدهم قلقين حيناً ، منظمين خطة للهرب حيناً آخر إنّ دهمهم أمر .

(52) ج 3 ص 220 و 221 .

(53) ج 1 ص 216 و 217 .

(54) ج 1 ص 42 .

(55) ج 2 ص 78 .

(56) ج 1 ص 129 .

(57) و(58) ج 1 ص 130 .

(59) و(60) ج 2 ص 26 .

فابن سعدان بعد ما كان يأمل في نيل شرف الرياسة واصطناع المعروف من تحمله المسؤولية السياسية صار يعبر صراحة عن خوفه من الغد قائلاً : « فعاد كله بالضد وحال إلى الخلاف ووقف على الفكر المضني والخوف المقلق واليأس الحبي والرجاء الميت وما أحسن ما قال القائل :

أضمتني الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطرت عليّ مصائباً»<sup>(61)</sup>

وأعداؤه يؤكدون أنه ربط اتصالات بالقرامطة ليفر إليهم عندما تصيبه مصيبة<sup>(62)</sup> . ويقطع النظر عن مدى صدق هذه الشائعة المتعلقة بابن سعدان فإن ما يهمننا هو وجود هذه الظاهرة التي تتأكد بقول الوزير أبي الفتح بن العميد ( توفي عام 366 هـ ) « أمّا أنا بعد التوكل على الله فقد استظهرت بمحمد بن إبراهيم صاحب نيسابور وبفخر الدولة بهمدان على ثلاثة أيام . ويعز الدولة وهو بمدينة السلام ، ومتى حرب حارب وراب رائب أويت إلى واحد من هؤلاء »<sup>(63)</sup> .

ومن مظاهر عدم اطمئنان العامة نتيجة الفساد السياسي الذي غلب على البلاد ما اعترى الناس من خوف ورعب إثر مهاجمة الروم لمدينتي الموصل وبغداد سنة 362 هـ « فخاف الناس بالموصل وما حولها وأخذوا في الانحدار على رعب قذف في قلوبهم ليكون سبباً لما صار إليه الأمر وماج الناس بمدينة السلام واضطربوا »<sup>(64)</sup> ويبدو أن دوافع خوف العامة أعمق من خوف رجال الحكم . فهؤلاء يخافون على مراتبهم ومناصبهم بينما الناس يخافون على مستقبل الخلافة الإسلامية ، يقولون محللين لمخاطر تحلي السلطان عن مباشرة مهامه : « والتدارك واجب ، وهو الإسلام إن لم نذب عنه غلب الكفر وهو الأمن والسكون إن لم يحفظا فهو الخوف والبلاء وذهاب الحرث والنسل وفضيحة الولد والأهل »<sup>(65)</sup> .

هذه إذن خلاصة خصائص الحياة السياسية في القرن الرابع للهجرة كما يصورها كتاب الامتاع والمؤانسة متوترة وفاسدة ، وهذا الوجه كاف ليعطي للأثر قيمة حضارية هامة ، لكن أبا حيان التوحيدي لم يقف عند حد وصف الواقع السياسي بمختلف مظاهره

(61) ج 3 ص 66 .

(62) ج 1 ص 44 .

(63) ج 3 ص 219 و 220 .

(64) ج 3 ص 151 .

(65) ح 3 ص 152 - 153 .

بل تعدّاه إلى إبداء موقفه منه فتزداد بذلك أهمية الحديث عن الحياة السياسية إذ إبداء وجهة نظر المؤلف تؤكد وعيه بمختلف المظاهر التي وصفها خاصة إذا كانت تلك النظرة مدعّمة بالنقد والتحليل والآراء الإصلاحية .



ونشير أولاً إلى أنّ آراء المؤلف ومواقفه المختلفة من خصائص الحياة السياسية في عصره لم يخصّص لها قسم من الكتاب ، فقد جاءت مشتتة بين مختلف أجزاء الأثر . وقد حاولنا جمعها وتبويبها لنبين مختلف طرق الإفصاح عنها ثمّ استخلصنا منها وجهة نظر المؤلف في طبيعة نظام الحكم وفي طريقة إصلاح الوضع الفاسد بالبلاد .

إنّ مواقف أبي حيّان التوحيدي من خصائص الحياة السياسية في عصره تبرز على ثلاثة مستويات القلق والضيق والنقد والاستنكار والتحليل .

يبدو أبو حيّان التوحيدي في حديثه عن أحوال العصر السياسية قلقاً ضيق النفس وهذا الموقف يدلّ على أنّه لم يكن متفجعاً على تلك الأحوال بل إنّ كان متفاعلاً معها تفاعلاً وجدانياً وهو أمر طبيعي من أدب واع بمواطن الفساد وبآثاره القرية والبعيدة من ناحية . ومعروف بحساسيته الكبيرة من ناحية أخرى . وما يؤكّد هذا الرأي أنّ القلق والضيق نجدّهما في مواقف المؤلف من مختلف أحوال العصر . ويتجلّى هذا القلق منذ مقدّمة الكتاب إذ يقول شاكياً عصره عامّة : « وقد بُلينا بهذا الدهر الخالي من الدّيانين الذين يصلحون أنفسهم - ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم »<sup>(66)</sup> . في هذه الشكوى العامّة نجد الشكوى من فساد الأحوال السياسية وخاصة من جور الحُكّام فمن بلايا العصر أنّه خال من حُكّام « إذا ولّوا عدلوا وإذا ملكوا أفضلو »<sup>(67)</sup> وأنّ أحواله ليس فيها شيء ممّا قدّمنا ذكره عن القوم الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرأفة والرفقة والرحمة والاصطناع والعدل والمعروف .<sup>(68)</sup>

ومواقف أبي حيّان السياسية لم تقتصر على إظهار الضيق بل تعدّتها إلى النقد والاستنكار ، ونقد المؤلف يتّسم بجرأة كبيرة وصراحة فائقة أحياناً رغم أن مسامره كان من رجال السياسة ، فهو لم يتردّد في نقد مظاهر الفساد التي أتيح له الحديث فيها .

---

(66) ج 1 ص 16 .

(67) ج 1 ص 17 .

(68) ج 1 ص 18 .

وأول ما نقد من مظاهر الفساد السياسي في عصره الظلم مبرزاً عواقبه الكبيرة فقد تحدّث عن الوزير محمد بن بقية ( المتوفى عام 369 هـ ) الذي طغى وبغى<sup>(69)</sup> . ثم قُتل لذنبه ونُكل به عضد الدولة ثم تساءل : « أم كيف كان ينجو وقد قتل ابن السراج بلا ذنب والجرجرائي بلا حجة وضرب ابن معروف بالسياط ؟ »<sup>(70)</sup> يبرز هذا التساؤل موقف المؤلف من الجور وهو التقييح الواضح ونتيجته هي سوء العاقبة لا محالة يقول مؤكّد هذا المعنى « والتشقي حلوا العلانية ولكنه مرّ العاقبة . »<sup>(71)</sup> .

ونقد التوحيدي ظلم الصّاحب بن عباد عبر هجائه الطويل له في الليلة الرابعة فتحامل عليه أشدّ التحامل ولعلّ أعنف جملة هي التي عرّضت بالجور فهو عند التوحيدي : « لا يرجع إلى الرقة والرافة والرحمة . . . شديد العقاب طفيف الثواب . . . وقد قتل خلقاً وأهلك ناساً ونفى أمة تعتاً وتجيراً وزهواً . »<sup>(72)</sup> . إن المؤلف وهو يرّد هذه العيوب كأنه يلتذّ تشفيماً من الرّجل الذي أساء إليه شديد الإساءة وقد وجد أنّ الجور هو أبرز نقيصة يؤاخذ عليها وفي ذلك دليل على مدى استنكار التوحيدي لها .

وقد كان التوحيدي كثيراً ما يجد الفرصة لنقد الجور عندما يطلب منه الوزير أن يسرد على مسامعه بعض الحكم والمواعظ فهو يلقي في الليلة التاسعة عشرة عدّة جمل متباعدة تدعّم هذا الرأي : « من طال عدوانه زال سلطانه » و « ظلم العمّال من ظلمة الأعمال »<sup>(73)</sup> و « اللهم إني أعوذ بك من سلطان جائر ونديم فاجر »<sup>(74)</sup> .

هذا النقد بوجهيه المباشر وغير المباشر يدلّ على عدم ارتياح المؤلف لهذه الظّاهرة الغالبة على حكم العصر وعن توقه الكبير إلى قيمة سياسية أخرى يتمنى أن تسود العصر وهي العدل بلا شك . فيتخذ النقد هنا بعداً إصلاحياً .

ونقد أبو حيّان عزّ الدولة لانصرافه عن مباشرة واجبات الحكم والتّلهي عنها بالملذّات فبين مخاطر هذا السلوك على مستقبل البلاد « كما بين سوء أخلاقه في استقبال رُسل العامّة ليحثّوه على تدارك ما ذاهم البلاد من خطر الرّوم وعبث العيّارين يقول ساخراً

(69) ج 3 ص 216 .

(70) ج 3 ص 216 و 217 .

(71) ج 3 ص 217 .

(72) ج 1 ص 55 .

(73) ج 2 ص 61 - 62 .

(74) ج 2 ص 67 .

منه : « وكان وافر الحظ من سوء الأدب ، قليل التحاشي من أهل الفضل والحكمة »<sup>(75)</sup> والسخرية في الجملة تهجن أخلاق الوزير وتعبّر عن عدم ارتياح المؤلف لهذا السلوك .

وإنّ ما يجعل المواقف من الوضع السياسي أكثر إيجابية وعمقاً أن المؤلف تطرّق إلى تحليل أسباب عدّة أحداث أو إبراز نتائجها مفصلاً عبر ذلك عن نظريته السياسية : فعند الحديث عن الانقسام السياسي الذي عرفته البلاد خلال ثورة الروم ، بين أنّ نتيجة هذا الأمر هي السقوط الحضاري ، والتوحيدي يظهر هنا محلاً سياسياً قد عرف من دراسته للتاريخ أسباب سقوط الدول فجاء حديثه عاماً كأنه قاعدة حضارية تتجاوز الحدث الآني في البلاد . يقول متحدثاً عن نتائج انقسام الناس : « وبمثل هذا فتحت البلاد ، وملكت الحصون وأزيلت النعم وأريققت الدماء وهتكت المحارم وأبيدت الأمم »<sup>(76)</sup> . فموقفه إذن واضح من الانقسام السياسي إذ أبرز حول نتائجه العسكرية والاقتصادية والبشرية والأخلاقية والحضارية وهو يعبر عن طموح التوحيدي إلى أن يرى المجتمع متّحداً سياسياً متضامناً في دفع الأعداء حتّى يحافظ عن حضارته ومقوماتها العسكرية والاقتصادية والأخلاقية .

وبينّ التوحيدي أيضاً أسباب تجرّ الحكّام وتسلبهم وفسادهم سياسياً عند تحليل أسباب طغيان الصّاحب بن عبّاد . فأرجع ذلك إلى سببين أساسيين :

- عدم توفّر حاشية جريئة وشجاعة تنقده وتبرز له أخطائه ولا تنافقه تقرباً إليه .

- والثقة التامة فيه والتعويل المطلق عليه في مباشرة شؤون البلاد من المليك الذي استوزره فخلا له الجوّ حتّى طغى .

هذان السببان هما بمثابة القاعدة العامّة التي تفسد رجال السياسة وذلك رغم أنها جاء في سياق تحليل أسباب طغيان الصّاحب فتجاوز التحليل هنا مرّة أخرى الواقع الآتي ليفصح عن رأي المؤلف في أثر فساد الحاشية والتعويل الكامل من الملوك على وزرائهم في تسيير شؤون الدولة وهو لذلك يعطي بديلاً لأسباب صلاح الحكّام وهو توفر حاشية صريحة قادرة على مواجهة الحكّام في أخطائهم . والتوحيدي يفضّل أن تتركب من رجال ثقات يفزع لهم بالمشورة ، يقول ناصحاً الوزير ابن سعدان : « وافرغ إلى الله في الاستشارة وإلى الثقات بالاستشارة . ولا تبخل على نفسك برأي غيرك وإن كان خاملاً في

(75) ج 3 ص 154

(76) ج 3 ص 154 .



نفسك . «<sup>(77)</sup> أما السبب الثاني لصلاح الحُكَّام فهو ضرورة مباشرتهم لمسؤولياتهم .

وفي موضع آخر من الكتاب نجد التوحيد يطل في تفسير سبب لهج العامة بالسياسة وتتبعها لسيرة الحُكَّام لأن مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية كلها متعلقة بسيرة الحاكم وهي تتبع سيرة الكبراء لما ترجوه من الخير إذا صلحت أمورهم وما ترهبه من الشر إذا فسدت سياستهم<sup>(78)</sup> . وهو في هذا التحليل يناصر العامة في حرصها على معرفة دقائق السياسة ، وهو موقف هام يدل على وعي أبي حيان بضرورة مراقبة الرعية لسياسة الحُكَّام الظاهرة والباطنة يحملها مسؤولية المشاركة في الحياة السياسية بالبلاد لهذا السبب نراه ينصح الوزير ابن سعدان بأن لا يضجر من اهتمام العامة بسيرته وأموره فيورد قولاً لأبي سليمان السجستاني يدعم هذا المعنى : « ليس ينبغي لمن كان الله عزَّ وجلَّ جعله سائس الناس عامتهم وخاصتهم وعالمهم وجاهلهم وضعيفهم وقويهم وراجحهم وشائلهم أن يضجر ممَّا يبلغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة . »<sup>(79)</sup> .

وقد تجاوزت مواقف أبي حيان السياسة نقد الحديث الآني أو تحليله أو التضجر منه إلى إبراز رأيه في نظام الحكم وفي الأسس التي ينبغي أن يقام عليها . فأول أساس يجب أن يُبنى عليه هو التلازم بين السياسة والشرعية يقول : « إلا أن الناظر في أحوال الناس ينبغي أن يكون قائماً بأحكام الشريعة حاملاً للصغير والكبير على طرائقها المعروفة ، لأن الشريعة سياسة الله في الخلق والملك سياسة الناس للناس على أن الشريعة متى خلت من السياسة كانت ناقصة والسياسة متى خلت من الشريعة كانت ناقصة »<sup>(80)</sup> . فالدين في رأيه ليس مجرد شعائر تؤدي بعيداً عن الحياة العامة وإنما هو وجود فعلي يومي في حياة الناس ، لذا نرى المؤلف يؤكد أن وظيفة رجل السياسة هي تطبيق أحكام الشريعة .

إن قول التوحيد بضرورة هذا التلازم ليس أمراً جديداً ، فهو لم يتعد التعبير عن موقف الدين الإسلامي من هذه القضية الجوهرية قضية فلسفة الحكم الإسلامي - لكنه رغم ذلك فهو موقف هام بالنسبة إلى ذلك العصر ولأصل الفساد السياسي الغالب عليه . فالتوحيد يرجع السبب الكبير لفساد الأحوال بالبلاد - ومنها الأحوال السياسية طبعاً - إلى

(77) ج 2 ص 214 .

(78) ج 3 ص 72 - 73 .

(79) ج 3 ص 76 .

(80) ج 2 ص 33 .

ضعف الدين وفتر تأثيره في الحياة اليومية للناس<sup>(81)</sup> ورأيه في فلسفة الحكم الإسلامي يتخذ بعداً إصلاحياً واضحاً جوهره إحياء الدين وإعطاؤه أبعاداً فعلية في سياسة البلاد .

وانطلاقاً من هذا التصور نجد المؤلف يحدد جملة الشروط الواجب توافرها في رجل السياسة حتى يتمكن من القيام بأحكام الشريعة . والشرط الأول هو التعقّف الأخلاقي . ويظهر هذا الموقف في نقد أبي حيان التوحيدي على لسان ابن سليمان لسلوك كسرى أنوشروان لما تولّى الحكم فأدمن على شرب الخمرة صباحاً ومساءً . فهو يرى أنّ في هذا السلوك عيوباً كثيرة أهمّها الإفراط في الإدمان على الخمرة ونتيجة ذلك تفريط الملك في مباشرة الأمور بنفسه وتحويله على عمال ينوبونه في ذلك فتزدرية العامة وتستهن به عند وقوفها على استهتاره ومجونه يقول : « وهذه مكسرة للهية وقلة الهية رافعة للحشمة وارتفاع الحشمة باعث على الوثبة والوثبة غير مأمونة من الهلكة »<sup>(82)</sup> فلنلاحظ دقة الترابط في تفكير التوحيدي بين الناحية الأخلاقية عند الحكم وعمق تأثيرها في العلاقة السياسية بينهم وبين الرعية . وفي نفس هذا السياق نجده في آخر الكتاب يوجّه عدّة نصائح أخلاقية إلى الوزير ابن سعدان يقول له : « واهجر الشراب وأدم النظر في المصحف وافزع إلى الله في الاستخارة . . »<sup>(83)</sup> من الصفات الأخلاقية المستحسن توفّرها في الحكم التواضع لأنّه دواء النفس وسجية أهل البصيرة في الدنيا والدين<sup>(84)</sup> ويشفع التوحيدي رأيه هذا بقول لابن السّمّاك ( ت سنة 283 هـ ) خاطب به هارون الرشيد إعجاباً بتواضعه وسرعة دمعته يقول : « يا أمير المؤمنين لتتواضعك في شرفك أشرف من شرفك ، وإني أظن أنّ دمعتك هذه قد أطفأت أودية من النار وجعلتها برداً وسلاماً »<sup>(85)</sup> .

مع هذه الشروط الأخلاقية حدّد التوحيدي شروطاً سياسية تمكّن الحاكم من النجاح في مهامه ومنها :

- وجوب احترام العامة لما لها من دور كبير في الحياة لأنها : « في هذه الدّار عمارة لها

(81) ج 1 ص 16 - 17 - 18 .

(82) ج 2 ص 25 .

(83) ج 3 ص 224 .

(84) ج 3 ص 224 .

(85) ج 1 ص 22 .

ومصالح لأهلها»<sup>(86)</sup> وذكر التوحيدي قول أحد الحكماء : « لا تسبوا الغوغاء فإنهم يخرجون الغريق ويطفثون الحريق ويؤنسون الطريق ويشهدون السوق »<sup>(87)</sup> . إن الدعوة إلى احترام العامة تبين التصور السياسي للعلاقة بين الحاكم ورعاياه وهي علاقات احترام متبادل وهو ما يكون علاجاً أساسياً للتوتر السياسي الناشئ عن فساد علاقة الحاكم بحكوميته .

- وجوب المباشرة لشؤون الحكم وعدم التعويل كلياً على الأعوان في تسيير البلاد لأن المباشرة تجعل الحاكم عارفاً تمام المعرفة بأحوال رعاياه فيهابونه ويحترسون منه ويتدعم نظام الدولة . يقول : « متى كان السائس ذا تخطيط وتبوع وحزم واكباب على لم الشعب وتقويم الأود وسد الخلل وتعرف المجهول وتحقق المعلوم ورفع المنكروث المعروف احترست منه العامة والخاصة واستشعرت الهيبة والتزمت بينها النصفة »<sup>(88)</sup> .

- ويلجأ التوحيدي على ضرورة استعانة الحاكم برجال يستشيرهم ويرجع إليهم في كليات السياسة لما للمشورة من منافع تعود على الخاص والعام . يقول مخاطباً ابن سعدان : « ولا تبخل على نفسك برأي غيرك وإن كان خاملاً في نفسك قليلاً في عينك فإن الرأي كالدرة التي ربما وجدت في الطريق وفي المزبلة »<sup>(89)</sup> . وللمشورة منافع اقتصادية تعود على بيت المال بالخير الكثير ويدعم التوحيدي رأيه هذا بقول لعمر بن عبد العزيز : « والله إنني لأعوذ برأيه - يعني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود - ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف دنانير »<sup>(90)</sup> ويفضل التوحيدي أن يكونه أهل المشورة من رجال العلم والأدب .

- والحاكم الصالح هو من يقيم سياسته على العدل وقد سبق أن بينا نقد التوحيدي للجور وطموحه لتوفر العدل السياسي .

إن جهلة هذه المواقف تضبط النظرة لروح نظام الحكم ولأسسه السياسية والأخلاقية ، وهي تبدو عموماً معارضة للواقع السياسي في القرن الرابع كما صوره كتاب الامتاع والمؤانسة . فما هي مبادئ هذا التصور وما هي أبعاده السياسية ؟ .

---

(86) و(87) ج 1 ص 205 .

(88) ج 2 ص 25 .

(89) ج 3 ص 224 - 225 .

(90) ج 1 ص 26 .

إننا لا نشك في أن مصادر تفكير المؤلف من خلال المواقف التي اتخذها دينية حضارية . فأصول هذه النظرة إسلامية بلا شك وقد أشرنا في سياق تحليل مواقف المؤلف إلى ذلك عند الحديث عن ضرورة التلازم بين السياسة والشريعة وهو يعتبر أن الحكم الشرعي قد أقيم في العهد الإسلامي الأول لذا نراه كثيراً ما يذكر أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو سيرة الخلفاء الصالحين في سياستهم للناس . فعندما يُشير إلى ضرورة إقامة السياسة على العدل يذكر حديثاً نبوياً في هذا المعنى : « ما من رجل يلي أمر عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً أطلقه العدل أو أوثقه الجور »<sup>(91)</sup> وهو يتحدث عن سيرة عمر بن عبد العزيز الذي أمر عامله بالمدينة أن يقسم المال بين الناس بالعدل دون استثناء للمعارضين السياسيين للحكم الأموي من ذلك أن أهل البيت نالوا حقهم من ذلك المال ، فكانت نتيجة ذلك أن شكرته فاطمة بنت الحسين على عدله قائلة : « إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ما تولاّه وعصم به دينه » فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالاً من الكتبية ويتحرى بذلك ما كان يصنع من قبله من الأئمة الراشدين المهديين وقد بلغنا ذلك وقسم فينا فوصل الله أمير المؤمنين وجزاه من والٍ خير ما جزى أحداً من الولاة »<sup>(92)</sup> وليس يخفى مغزى هذه الحكاية فالعدل يوحد الناس ويجمعهم حول الحاكم .

ومن الأسس السياسية التي حثّ عليها التوحيدي الوزير ابن سعدان استشارة الغير في أمور السياسة وهذا مبدأ إسلامي أساسي في نظام الحكم أبانه القرآن في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الشورى . يقول تعالى : ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . كما حثّ عليه في الآية الثامنة والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران يقول مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ .

والقيم الأخلاقية التي أكد التوحيدي وجوب توفّرها في رجل السياسة من تعقّف وتواضع ، قد ألحّ الإسلام على ضرورة التحلي بها .

إلى جانب هذه المصادر الإسلامية ، نجد أبا حيان يقتبس من الفلاسفة اليونانيين أقوالاً نادرة يؤد بها أفكاره من ذلك إirاده لقولين لأفلاطون يتحدثان عن صلاح

(91) ج 2 ص 96 .

(92) ج 2 ص 72

الرؤساء : « موت الرؤساء أصلح من رئاسة السفلة »<sup>(93)</sup> . ويقول أيضاً : « لا يسوس النفوس الكثيرة على الحق والواجب من لا يمكنه أن يسوس نفسه »<sup>(94)</sup> .

لكن هذه الأقوال تبقى ضئيلة في تفكير أبي حيان السياسي وهو ما يؤكد أن مصادر ذلك التفكير هي قبل كل شيء مصادر ( أصيلة ) أي تراثية .

هذا في خصوص مصادر التفكير السياسي عند التوحيدي أما عن أبعاده فهي هامة أيضاً . فمواقفه في تقابلها مع الواقع السائد تعبر عن طموحاته إلى قيم مفقودة كالعدل والمشورة وتعقّف الحكام الخ . . لذا فإننا نعتبر أن هذه الآراء تكون البديل السياسي للواقع السائد وذلك ما يجعل المؤلف متفاعلاً مع العصر وجدانياً وفكرياً . لكن الملاحظ أن هذا التفكير لم يكن مسترسلاً في الكتاب وإنما هو شذرات متفرقة في كلّ الأجزاء وذلك راجع دون شك إلى تقييد حرية المؤلف ، فمن المعلوم أن مواضيع المسامرات لم يكن الكاتب يحددها بنفسه وإنما كان ابن سعدان هو الذي يختارها فتارة يكون الموضوع سياسياً وطوراً أدبياً أو فلسفياً أو علمياً .

ندرك بعد تحليل خصائص الحياة السياسية في القرن الرابع للهجرة وتحديد مواقف المؤلف منها :

- أن أبا حيان التوحيدي قد تحدّث في كلّ المعضلات السياسية في عصره من أسس نظام الحكم إلى واجبات الحاكم إلى إبراز الأحداث التي وقعت آنذاك « وذلك يعطينا نظرة متكاملة عن الوضع السياسي عامة بمختلف وجوهه ويجعل لكتاب الامتاع والمؤانسة قيمة حضارية سوف ننظر في مدى صدقها ووثاقيتها في نهاية البحث .

ثم إن آراء المؤلف قد شملت أيضاً كل الجوانب السياسية التي تحدّث عنها ، وهي آراء تعبر عن تباين بين الواقع السياسي وطموحات الأديب لذا فقد جاءت في أغلب الأحيان مستقصية للعيوب مؤكدة مواطن الفساد حتى لكأن صاحبها كان ينقّب عنها تنقيباً .

وسوف نقيم في نهاية هذا البحث آراء التوحيدي ومواقفه سلباً وإيجاباً .

- والصورة السوداء التي رسمها التوحيدي للأحوال السياسية في عصره تجعلنا

---

(93) ج 2 ص 46 .

(94) ج 2 ص 47 .

نتساءل عن أخلاق الناس وعلاقاتهم ببعضهم وأحوالهم المادية وسط الفساد السياسي العام .

فهل لمجتمع يعاني الفراغ السياسي والجور أن يعرف الاستقرار والسكينة والأمن ؟ .

ذلك هو السؤال الذي سنجيب عنه في الباب الموالي .

## الباب الثاني

### خصائص الحياة الاجتماعية ومواقف أبي حيان التوحيدي منها

وقد بلىنا بهذا الدهر الخالي من الدّيانين  
الذين يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم  
بفضل صلاحهم . الخاوي من الكرام الذين  
يتسعون في أحوالهم ويوسعون على غيرهم في  
سعتهم .

- أبو حيان التوحيدي -  
مقدمة الامتاع والمؤانسة





إن الحديث عن الحياة الاجتماعية في كتاب الامتاع والمؤانسة لا يقل أهمية عن الحديث عن الحياة السياسية . وإن صور الحياة الاجتماعية وفيرة ومتنوعة لأن مجالات الخوض فيها توفرت للتوحيدي عديد المرات نظراً لاهتمام الوزير ابن سعدان بمعرفة الشؤون الاجتماعية بالبلاد وهو رجل السياسة الراغب دائماً في الاطلاع على أحوال الناس .

والتوحيدي قد تحدّث عن كلّ الطبقات الاجتماعية وأبرز طريقة عيشها وأخلاقها وعلاقاتها ببعضها البعض لذلك كانت مواقفّه من خصائص الحياة الاجتماعية أوضح وأكثر صراحة وهي مواقف تحليلية ونقدية أبرزت مدى تفاعله مع أحداث المجتمع من ناحية ودلّت على رؤيته الإصلاحية ومقوماتها من ناحية أخرى .

وقد اعتمدنا في تحديد خصائص الحياة الاجتماعية على استقراء النص والتأليف بين مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية للخروج بصورة واضحة عن المجتمع في القرن الرابع للهجرة فوقفنا على الخصائص التالية :

- التباين الاجتماعي .
- وانعدام الأمن الاجتماعي .
- والفساد الأخلاقي .

ثمّ حدّدنا بعد ذلك مواقف المؤلف وبحثنا في مصادرها وأبعادها .  
يتميز المجتمع الذي صوّره الإمتاع والمؤانسة بالتباين الشامل فهو تباين طبقي وسلوكي وجنسي .

وأما التباين الطبقي فيبرز من خلال تحليل غط حياة الخاصة وغط حياة العامة :

فالخاصة تتركب من رجال السياسة وحاشيتهم وكبار التجار وغيرهم ، وهي الطبقة المحظوظة معنوياً ومادياً لأنها تملك في نفس الوقت السلطة والمال . فالصاحب بن عباد ( المتوفى عام 384 هـ ) ( يطيعه الرجال ويصدقّه الجلساء ) رغم أن « صغار آفاته كبيرة وذنوبه جمة »<sup>(1)</sup> وذلك لأن « الغنى ربّ غفور »<sup>(2)</sup> حسب رأي التوحيدي . والوزير ابن سعدان ( المتوفى عام 375 هـ ) يملك الدرهم والدينار والذهب والفضة والثياب العزيزة والخلع النفيسة والخيل العتاق والمراكب الثقال والغلمان والجواري<sup>(3)</sup> ، وهي كلها تبرز ثراءه .

وامتلاك الخاصة للمال والجاه مكّنها من العيش المترف ، فكانت تلهو وتعبث وتنفق الأموال إرضاء لشهواتها : فهذا الأمير عز الدولة ( المتوفى عام 366 هـ ) قد غادر بغداد - مقرّ الخلافة - وذهب إلى الكوفة ينعم بلذتي الصيد والغناء<sup>(4)</sup> وما تبعهما من ملذات المأكّل والمشرب . وهذا أبو عمر الشّاري صاحب الخليفة يدعو أحد المتصوّفين إلى مائدته واصفاً له مختلف أنواع المأكّل الفاخرة الموجودة فوقها قائلاً : « انهض بنا حتّى نتغدى فإنّ عندي مصوصاً وهلاصاً وبقية مطبّخة وشيئاً من الباذنجان البوراني المخمر »<sup>(5)</sup> وهذا أبو الفضل بن العميد ( توفي عام 366 هـ ) كما يصفه أحد أعوانه « لاه ساه . . . بالكاس والطّاس والغناء والقصف والنّاي والعود والصّبوح والغبوق والشّراب المروّق العتيق »<sup>(6)</sup> ومظاهر لهُ الخاصّة متعدّدة في « الامتاع والمؤانسة » . ومن مظاهر ترف الخاصّة أننا نجد بعض أفرادها يتجادلون حول المفاضلة بين الطعام والغناء . وفي ذلك الدليل الكبير على أنّ هذه الطبقة لم تعرف الحرمان ولم تكابده فالتوحيدي يروي لنا حواراً دار بين رجلين يجلس أحمد بن يوسف الكاتب أخذ الأول في ذمّ الغناء فردّ عليه الثاني بقوله : « قصدت إلى أرقّ شيء خلقه الله وألينه على الأذن والقلب وأظهره للسرور والفرح وأنفاه للهمّ

(1) ج 1 ص 60 - 61 .

(2) عجز بيت للشاعر الصعلوك عروة بن الورد يبين فيه أنّ المال يحوّذ ذنوب الأغنياء يقول :

قليل ذنبه والذنب جَم ولكن الغنى ربّ غفور

(3) ج 3 ص 223 .

(4) ج 3 ص 152 .

(5) ج 3 ص 80 .

(6) ج 3 ص 218 .

والحزن . . . فذمته»<sup>(7)</sup> فأجابه قائلًا : « أما أنا فالطعام الرقيق أعجب إليّ من الغناء »<sup>(8)</sup> .

أما العامة فيصوّرها التوحيدي في أماكن كثيرة من الكتاب تعاني الفقر المدقع وتعيش الجوع فتتسوّل وتلبس أحقر الثياب . وليس أدلّ على صدق هذه الأحوال من شهادة رجل من الخاصة هو الوزير ابن سعدان الذي يقول واصفًا العامة : « لم أقابل عامة جاهلة ضعيفة جائعة بمثل هذه الكلمة الخشنة »<sup>(9)</sup> .

وقد تحدّث أبو حيان عن المتصوّفين ووصف أحوالهم المادية البائسة وضنك ما يعانونه من الجوع . يقول أحد المتصوّفين واصفًا حياته وحياة أصحابه : « كنّا جماعة غرباء نأوي إلى دويرة الصوفية لا نبرّحها فتارة نقرأ وتارة نصلي وتارة ننام وتارة نهذي والجوع يعمل عمله »<sup>(10)</sup> ثم يقول : « نحن قوم قد رضينا في هذه الدنيا العسيرة » ولهذا الحياة القصيرة بكسرة يابسة وخرقة بالية وزاوية من المسجد مع العافية من بلايا طلاب الدنيا »<sup>(11)</sup> .

وكان يبلغ بهم الجهد من معاناة الجوع فلا يجدون ما يمسك الروح ، وذلك ما وقع لبعضهم في شهر صفر سنة أربع وخمسين وثلاثمائة للهجرة حتّى تحصّلوا على شيء من الدقيق لكنهم لم يجدوا الوقود لطبخه فبقوا ثلاثة أيام على تلك الحال حتّى فرّج الله عنهم فوجدوا الوقود وطبخوا الطعام .<sup>(12)</sup>

لئن رضي المتصوّفون عامة بتلك الأحوال فأتخذوا من القناعة بالقليل ملبسًا ومسكنًا ومأكلاً - مذهبهم في الحياة - فإننا نجد طائفة أخرى من العامة رفضت الاستكانة والاستسلام حتّى وجدت فرصتها للخروج من الفقر . وهذه الطائفة تعرف بالعيّارين . وقد كانت هذه الطائفة محتقرة تعاني الخصاصة والغبن الاجتماعي . يصف أبو حيان واحداً منهم وهو أسود الزبد بقوله : « كان عبداً يأوي إلى قنطرة الزبد ويلتقط النوى ويستطعم من حضر ذلك المكان بلهو ولعب وهو عريان لا يتوارى إلّا بخرقة ولا يؤبه له ولا يبالي به »<sup>(13)</sup> ألا تعبّر هذه الجُمْل عن بليغ ما تعانيه هذه الفئة الاجتماعية من سوء

(7) و(8) ج 3 ص 80 .

(9) ج 3 ص 92 .

(10) و(11) ج 3 ص 92 .

(12) ج 2 ص 155 و156 و157 .

(13) ج 3 ص 160 .

الأحوال مادياً ومعنوياً ؟ . فلعلّ هذا ما يفسّر انتهازها لفرصة تصدّع المجتمع خلال مهاجمة الروم للمسلمين سنة 362 للهجرة للإغارة والنهب والسلب . (14) .

يبرز هذا الوصف لنمط حياة الخاصّة ونمط حياة العامة تبايناً واضحاً بين الطبقتين مادياً ومعنوياً . فالتناقض بين من ينعم بالتّرف ومن يشكو الجوع ليس بحاجة إلى دليل . والتقابل بين الخطوة الاجتماعية للخاصّة والمهانة الاجتماعية للعامة تزيد هذا التناقض عمقاً واستفحالة .

لكن أليست لهذا التناقض الطبقي انعكاسات اجتماعية ؟ إن مجتمعاً يبلغ فيه التناقض الطبقي هذا الحدّ ولا يتحرّك فيه المحرومون هو مجتمع ميّت . وما كان المجتمع في القرن الرابع كذلك ، إذ رفضت العامة الخصاصة فبدت ضابحة ثائرة بدليل الأقوال التالية في كتاب الامتاع والمؤانسة « المحروم ساخط » و« لما نزل الوزير ليركب المركب عجبوا وضجّوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذّر الكسب وتهتك صاحب العيال » (15) و« ضجّت العامة » (16) في هذه الجمل كلمات تدلّ على الثورة والغضب مثل « ساخط . وعجّوا وضجّوا وضجّت » وهذه الثورة هي الرّد الطبيعي على المهانة الاجتماعية والخصاصة المادية .

لكن أبرز ردّ فعل على هذا التناقض الطبقي هو ثورة العيارين سنة 362 للهجرة . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن أحوال العامة ، لكننا نريد أن نوّكد أنّ ردّ الفعل مع العيارين تجاوز السخط والضجيج إلى أخذ السلاح وسفك الدماء يقول التوحيدى : « سُنت الغارة وأنّصل النّهب وتوالى الحريق حتى لم يصل إلينا الماء من دجلة » (17) .

إنّ ثورة العيارين هي ثورة أشد الناس مهانة في المجتمع فمن الطبيعي أن تكون ثورتهم أعنف الثورات وأشدّها .

هذا بخصوص التباين الطبقي وانعكاساته الاجتماعية . فماذا عن التباين السلوكي ؟ .

(14) ج 3 ص 160 و161 و162 .

(15) ج 2 ص 26 .

(16) ج 3 ص 92 .

(17) ح 3 ص 160 .

إنَّ أبرز ما ميّز الناس في سلوكهم الاجتماعي رغم التناقض الطبقي السائد بينهم هو اشتراكهم في الجمع بين الهزل والجدّ . ونحن سنبيّن مظاهر من هذا السلوك ثمّ نفسّر أسباب سيطرته على الناس لنبيّن أخيراً نتائجها الاجتماعية :

نتبين من النظر في سلوك بعض الناس من خلال الكتاب جمعهم بين الهزل والجدّ . مثال ذلك أبو محمّد بن معروف قاضي القضاة ببغداد فقد أشركه المهبلي ( توفي عام 352 هـ ) في أمر الملك مع بعض الرّجال الآخرين « إنه ( أي المهبلي ) قدّم قوماً ونوّه بهم ونبّه على فضلهم وأحوج الناظرين في أمر الملك إليهم وإلى كفايتهم منهم أبو الفضل العبّاس بن الحسين ومنهم ابن معروف القاضي . . »<sup>(18)</sup> وشارك في الوفد الذي ذهب إلى الأمير عز الدولة سنة 362 هـ ليحثّه على تدارك أمر الفتنة التي اجتاحت البلاد بعد غزو الرّوم للبلاد<sup>(19)</sup> .

لكنّنا إلى جانب هذا السلوك الجدّي نجده يحضر مجالس الغناء ويترقب لصوت مغنية تُسمّى عليّة وهي تتغنّى بغزل عمر ابن أبي ربيعة :

« أنيري مكان البدر إن أفل البدر      وقومي مقام الشّمس ما استأخر الفجر  
ففيك من الشمس المنيرة نورها      وليس لها منك المحاجر والثغر »<sup>(20)</sup>

ويصف لنا أبو حيان القاضي أبي الحسن الجراحي في وقاره بمجلس القضاء في « ردائه المحشّى وكمّيه المقدرين ووجنتيه المخلجتين وكلامه الفخم وإطراقه الدّائم »<sup>(21)</sup> ثمّ يصفه لنا هازلاً ماجناً بمجلس الغناء « يغمز بالحاجب إن رأى مرطاً وأمّل أن يقبل خدّاً وقرطاً على غناء شعلة :

لا بدّ للمشتاق من ذكر الوطن      واليأس والسلوة من بعد الحزن

وقيامته تقوم إذا سمعها ترجّع في لحنها :

لو أنّ ما تبتليني الحادثات به      يلقي على الماء لم يشرب من الكدر

فهناك ترى شبيبة قد ابتلت بالدموع وفؤاداً قد نزا إلى اللهاة مع أسف قد ثقب

(18) ج 3 ص 213 .

(19) ج 3 ص 153 .

(20) ج 2 ص 172 .

(21) ح 2 ص 168 .

القلب وأوهن الرّوح وجاب الصّخر وأذاب الحديد»<sup>(22)</sup> . ولعلّ أبرز مثال على هذا التباين السلوكي شخصية أبي سليمان السجستاني فالكتاب ثري بآرائه ومواقفه الجدّية في السياسة والفلسفة والشريعة وغيرها من المواضيع وهو إلى جانب ذلك يحضر مجالس الغناء ويضطرب طرباً شديداً على غناء صبي موصليّ « فتن الناس وملأ الدنيا عيارة واقتضح به أهل النسك والوقار وأصناف الناس من الكبار والصغار بوجهه الحسن وثغره المبتسم »<sup>(23)</sup> .

وقد صارت مجالس الناس تشتمل في نفس الوقت على هذين المظهرين كمجلس « رسل سجستان » الذي وصفه أبو حيان في الليلة الثالثة فقد جمع هذا المجلس بعض رجال السياسة والعلم والأدب من ناحية ومطرب وراقص وجارية مغنية من ناحية أخرى<sup>(24)</sup> . وقد خاض القوم في السياسة طويلاً وتمتعوا طبعاً بالغناء والرقص وما تبعهما من الملذّات .

وهكذا كانت مجالس الوزير ابن سعدان التي حضرها التوحيدي تجمع بين أحاديث الجدّ والمالحة . فكانت أغلب الليالي تختتم بما يسمّى ملحّة الوداع . وقد طلب ابن سعدان من مسامره أن يجعل كامل الليلة الثامنة عشرة مجونية فقال له : « تعال حتى نجعل ليلتنا هذه مجونية ونأخذ من الهزل بنصيب وافر فإنّ الجدّ قد كدنا ونال من قوانا وملأنا قبضاً وكرباً »<sup>(25)</sup> .

نستنتج من هذه الأمثلة الكثيرة أن المزج بين الجدّ والهزل قد صار في القرن الرابع للهجرة أمراً طبيعياً وإلا فكيف نفسر حضور قاضي القضاة ومقرّء القرآن والمتصوّفين مجالس اللهو والمجون ؟ .

كما نستنتج أن هذه الظاهرة قد أقبلت عليها كل الفئات الاجتماعية رغم تباينها الطبقي فكانت لذلك ظاهرة عامّة .

ونجد في الكتاب تبريرات هامّة للمزج بين الجدّ والهزل « هي تبريرات نفسية :

- فالنفس في نظر أبي حيان تملّ الجدّ كما أنّ البدن يكلّ الإرهاق لذلك صار من

(22) ج 2 ص 168 .

(23) ج 1 ص 42 .

(24) ج 2 ص 50 .

(25) ج 2 ص 50 .

الضروري الترويح عنها كما يروّج عن الجسم . يقول أبوحيان : « لا بدّ للنفس من أن تطلب الرّوح عند تكاثف الملل الداعي إلى الخروج »<sup>(26)</sup> . وفي نفس هذا المعنى يقول الوزير ابن سعدان تعليقاً على أحاديث المجون التي سمعها من أبي حيّان في الليلة الثامنة عشرة « وربما عيّب هذا النمط كل العيب ، وذلك ظلم لأن النفس تحتاج إلى بشر وقد بلغني أن ابن عباس كان يقول في مجلسه بعد الخوض في الكتاب والسنة والفقه والمسائل » .  
احصوا وما أراه أراد بذلك إلّا لتعديل النفس لئلا يلحقها كلال الجّد »<sup>(27)</sup> .

إننا لا ننكر القيمة العلمية لهذا التعليل النفسي . إذ الإنسان بحاجة إلى فترات هزل وانسباط تتلو فترات الجّد والعمل . لكن هلّا يكون الترويح على النفس إلّا بالمجون وحضور مجالس الخلاعة ؟

وقد كانت لهذه المجالس نتائج اجتماعية واضحة ، فقد انتشر الغناء انتشاراً واسعاً إذ كثر المغنون والمغنيات من جميع الطبقات ، وقد أعطانا التوحيدي إحصاء قام به مع جماعة من أصحابه لعدد المطربين والمطربات ببغداد سنة ستين وثلاثمائة للهجرة فوجدوا بها « أربعمائة وستين جارية . . . ومائة وعشرين حرّة وخمسة وتسعين من الصبيان البُدُور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة »<sup>(28)</sup> ويضيف قائلاً : « هذا سوى ما كنّا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه وسوى ما كنّا نسمعه ممّن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلّا إذا نشط في وقت أو ثمل في حال وخلع العذار في هوى قد خالفه وأضناه وترنّم وأوقع وهز رأسه وصعد أنفاسه وأطرب جُلّاسه »<sup>(29)</sup> .

إن أرقام هذا الإحصاء هي أبلغ معبر عن مدى انتشار الغناء بين الخاصة والعامة وقد صار للغناء تأثير واضح في حياة الناس يطربون عليه طرباً شديداً يتجاوزون خلاله أطوارهم العادية فلا يتماسكون عن القيام بحركات « لا واعية » بل جنونية كثيراً ما تفقددهم ممّيزاتهم الإنسانية من روية وتعقل . فهذا أبو عبد الله المرزباني ( المتوفى عام 378 هـ ) شيخ أبي حيّان إذا سمع غناء خلوب الجارية « جنّ واستغاث وشقّ الجيب وحوّل »<sup>(30)</sup> وهذا ابن فهم الصوفي ينسى ما حوله ويفقد وعيه طرباً على غناء جارية ابن المغني ويصفه التوحيدي بقوله : « فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض ، وتمرّغ

(26) ج 1 ص 28 .

(27) ج 3 ص 60 .

(28) و(29) ج 2 ص 183 .

(30) ج 2 ص 177 .

في التراب ، وهاج وأزبد وتعقر شعره ، وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه فإنه يعضّ بنابه ويخمش بظفره ويركل برجله ويخرق المرقعة قطعة قطعة ويلطم وجهه ألف لكمة في ساعة»<sup>(31)</sup> .

إنّ هذا الرّسم لنشوة ابن فهم قد يكون التوحيدى بالغ فيه عمداً لكنه يبقى رغم كلّ شيء دالاً أصدق دلالة على مدى شغف الناس بالغناء وتأثرهم به .

ويحدّثنا التوحيدى في ثنايا كتابه عن مطربة يقال لها صباة « زلزلت بغداد في وقتها ولم يكن للناس غير حديثها لنوادرها وحاضر جوابها »<sup>(32)</sup> كما يحدّثنا عن مطرب صبيّ موصلى : « قد فتن الناس وملأ الدنيا عيارة وخسارة وافتضح به أهل النسك والوقار وأصناف الناس من الكبار والصغار . . . وهو فتنة الحاضر والبادي ومنية السائق والهادي »<sup>(33)</sup> .

إن هذه الجمل الأخيرة لتؤكد أنّ ولع الناس بالغناء لم يكن محضاً وإنما كان افتتاناً بالمغنيين من الجوّاري والغلمان . والناس المترفون منهم يبدلون الأموال الطائلة لاشرّاء جارية أو إغواء غلام : فقد اشترى رجل « بمرتبة الأمراء » جارية تسمى حسابة بثلاثين ألف درهم<sup>(34)</sup> . وقد بذل أبو طاهر بن المقنعي المال الوفير والطعام الفاخر ليغري غلاماً يسمى « علوان »<sup>(35)</sup> ولا بدّ أن نشير إلى أن للمجالس والجوّاري والغلمان تأثيراً كبيراً على الحياة الأخلاقية سوف نتعرّض إلى تحليله في العنصر المتعلّق بالفساد الأخلاقي .

هذه إذن الصورة المتعلّقة بالتباين السلوكي داخل المجتمع وتبريرات التوحيدى لها وأثرها في الحياة الاجتماعية . فما هي مظاهر التباين بين الأجناس داخل المجتمع ؟ .

يجب أن نشير إلى أنّ أجناساً متعدّدة تتعايش داخل المجتمع الإسلامي في القرن الرابع للهجرة من عرب وفرس وهنود وروم وغيرهم وهذه الأجناس فيها المسلمون واليهود والنصارى . وقد عرف هذا المجتمع صراعاً كبيراً بين الأجناس في عهد الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية كان مداره الأساسي الفرس والعرب .

---

(31) ج 2 ص 166

(32) ج 2 ص 182 .

(33) ج 2 ص 174 - 175 .

(34) ج 2 ص 181 .

(35) ح 2 ص 178 - 179 - 180 .



فقد ظهرت الحركة الشعبية في عهد الدولة الأموية تعادي العرب في أخلاقهم وحضارتهم وتمجّد الفرس علماً وحضارة . وقويت الحركة لكنها كانت دائماً تلاقى صداماً سياسياً واجتماعياً عنيفاً لكنّ الحال تغيّرت في القرن الرابع فقد تمكّن الأعاجم من السيطرة على مراكز النفوذ السياسي والاجتماعي . فهذا التوحيدي يصف ذلك بقوله : « ألا ترى أنّ الحال استحالت عجباً كسروية وقيصرية »<sup>(36)</sup> ثمّ يضيف : « ولكن لما غلبت عليهم العزّة ودخلت النعرة في آنافهم وظهرت الخنزوانة بينهم سمّوا آيين العجم أدباً وقَدّمُوهُ على السنّة التي هي ثمرة النبوة »<sup>(37)</sup> لكن ذلك لا يعني انتفاء ذلك الصراع تماماً « ففي كتاب الامتاع والمؤانسة ما يدلّ على وجود بقايا له فقد سأله الوزير ابن سعدان في الليلة السادسة « أتفضّل العرب على العجم أم العجم على العرب »<sup>(38)</sup> .

إنّ هذا السؤال دالّ على أنّ مشكلة المفاضلة بين العرب والعجم ما زالت قائمة يلدّ فيها الحديث . ولو انتفت القضية وزال أثرها لوجّه ابن سعدان اهتمام ليلته إلى مبحث أجدى من ذلك .

ويؤكّد أبو حيّان في سياق إجابته عن هذا السؤال وجود ذلك الصّراع . فقد حدّثنا عن الجيهاني<sup>(39)</sup> وعن مهاجمته للعرب وتفضيل الأعاجم عنهم في كتاب ألفه وقد ردّ عليه التوحيدي والقاضي أبو حامد المروروذي<sup>(40)</sup> ( توفي عام 362 هـ ) . وأبو الحسن الأنطاكي ( توفي عام 376 هـ ) .

فأول ما عاب الجيهاني على العرب معيشتهم وأخلاقهم « فقد كانوا في باديتهم يأكلون اليرابيع والحيات ويتهاجون ويتفاحشون فردّ عليه أبو حيّان ردّاً عنيفاً متّهماً إيّاه بالجهل قائلاً إنّ كل من يوجد في بيئة شبيهة ببيئتهم يأكل مأكّلهم ويتخلّق بمثل أخلاقهم حتى إنّ كان فارسياً أو رومياً أو تركياً أو هندياً . ثمّ بينّ أبو حيّان أنّ العرب لما اتّسعت دولتهم وتغيّرت بيئتهم « جاءتهم المناقب والمفاخر والنوادر من المآثر عفواً »<sup>(41)</sup> . ويمضي

(36) و(37) ج 2 ص 76 .

(38) ج 1 ص 70 .

(39) سمّي هكذا نسبة إلى جيهان وهي مدينة بخراسان .

(40) هو القاضي أبو حامد المروروذي أحد أساتذة أبي حيّان ، كان متضلّعاً في مختلف علوم عصره ، وقد لازمه التوحيدي طويلاً وروى عنه ( أنظر ابن جلكان كتاب وفيات الأعيان - القاهرة 1299 = الجزء الأول ص 18 ) .

(41) ج 1 ص 81 .

راداً على الجيهاني بكلّ حدة وعنف : « فليستح الجيهاني . . . بالإنصاف من القذع والسّفه اللذين حشا بهما كتابه وليرفع نفسه عما يشين العقل ولا تقبله حكام العدل » (42) .

ثمّ بين الجيهاني فضل الله على الفرس ، فقد أنعم عليهم الخيرات والملاذات وحرّم منها العرب وذلك في رأيه تفضيل من الخالق للفرس على العرب .

وقد أطنب أبو حيّان في الردّ على الجيهاني بعنف . فبين أنّ العزة عند الله لا تكمن في الجنان ومختلف النعم بل تكمن في طاعته والسعي إلى نيل مرضاته بالعمل والاجتهاد . ثمّ تحامل عليه قائلاً : « فليسكن من الجيهاني جأشه ليفارقه طيشه ، وليعلم أن من أنصف أعطى بيده وسلّم الفضل لأهله . فإنّ التواضع للحقّ رفعة والترفع بالباطل ضعة » (43) .

وقد بين الجيهاني في كتابه فضل الأعاجم العلمي فلم كتاب اقليدس والمجسطي وكتب الفلاحة والطب والعلاج وهي علوم لا يملكها العرب (44) .

لقد أورد أبو حيّان رأيه في هذا المأخذ فبين أولاً أنّ العلوم التي تحدّث عنها الجيهاني ليست للفرس وإنّما هي علوم اليونان ثم قال إنّ تلك العلوم هي علوم بشرية وقد امتلكها العرب بنوع إلهي « فليعلم الجيهاني أن هذا كله لهم ( أي للعرب ) بنوع إلهي لا بنوع بشري » (45) ثم أردف رأيه بقول للقاضي أبي حامد المرورودي ( توفي عام 362 هـ ) يتحدّث فيه عن علوم الفرس وعن أخلاقهم يقول إنّ الفرس لو كانت لهم الفضائل كلّها ما كان ينبغي لهم ذكر شيء منها لأنهم أباحوا لأنفسهم الزواج بأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم وهو ما تنفر منه النفوس بالطبع وتكرهه حتّى بعض البهائم . وجاءهم هذا الفعل من زرادشت نبّيهم الذي حلّله لهم وأتاهم عليه بكلّ برهان فقبلوه منه رغم عجبهم بعقولهم وكبرهم في أنفسهم .

وقد تدخل في الحديث بين الوزير وأبي حيّان « أبو الحسن الأنطاكي » ( توفي سنة 376 هـ ) الذي كان حاضراً في مجلس تلك الليلة فبين جهل زرادشت في حكمه

---

(42) ج 1 ص 85 .

(43) ح 1 ص 88 .

(44) و(45) ج 1 ص 89 .

وضعف عقول الفرس في قبوله<sup>(46)</sup> نستنتج بعد تحليل هذا الجدل حول المفاضلة بين العرب والأعاجم .

ـ أن التباين بين الأجناس ما زال قائماً وهو تباين بين العرب والفرس أساساً إلا أن كتاب الامتاع والمؤانسة لم يبرزه بصورة جلية في الحياة اليومية للناس .

ثم إن هذا الصراع حضاري ارتكز على إبراز الفضائل الأخلاقية والاقتصادية والعلمية لكل جنس . فقد نقد الجيهاني في كتابه أخلاق العرب ومعارفهم قبل الإسلام . كما نقد التوحيدي والقاضي المروزي وأبو الحسن الأنطاكي أخلاق الفرس وعاداتهم قبل الإسلام .

والجنس العربي قد صار في موقع الدفاع عن نفسه وعن حضارته ، ولعل ذلك راجع إلى تغلب الفرس وتمسكهم بالمواقع السياسية بالبلاد وانتشار عاداتهم وأخلاقهم تبعاً لذلك وهو ما يفسر دون شك حدة اللهجة التي ردت بها الجماعة على الجيهاني وأدعاءاته .

هذه إذن صور التناقض داخل المجتمع الإسلامي ، وهي تدلّ بلا ريب عن تفككه طبقياً وسلوكياً وجنسياً . فهل لمجتمع يعيش هذه الحالة أن يعرف الأمن والسكينة ؟ .



لقد أطنب كتاب الامتاع والمؤانسة في تصوير مظاهر انعدام الأمن الاجتماعي حتى أننا نخال أن المجتمع قد تفتت وصارت الحياة فيه مستحيلة ، فالناس قد شملهم الخوف وغلب عليهم الرعب والأمثلة على ذلك كثيرة :

ففي شهر صفر من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة يتحدث أبو حيان التوحيدي عن استحالة التجوال بالبادية « لرعب لحق قوماً من بني كلاب من أعدائهم »<sup>(47)</sup> .

وفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة للهجرة خلال هجوم الروم على المسلمين « خاف الناس في الموصل وما حولها وأخذوا في الانحدار على رعب قذف في قلوبهم »<sup>(48)</sup> .

وفي سنة سبعين وثلاثمائة بنيسابور خلال تمرد الجيش على الظلم الذي بلبل الدولة

(46) ج 1 ص 93 .

(47) ج 2 ص 156 .

(48) ج 3 ص 151 .

السَّامَانِيَّة ( شمل الناس الخوف وغلب عليهم الرعب )<sup>(49)</sup> إِنَّا لنلاحظ من خلال هذه الأمثلة تواتر كلمة ( الرَّعب ) فتبين بذلك عمق الخوف الذي عاشه الناس وحِدَّتَه .

كما نلاحظ الامتداد الزماني لهذه الحالة فالمثال الأول يعود إلى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، والثاني يرجع إلى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة والثالث يعود إلى عام سبعين وثلاثمائة وذلك يدل على أنَّ حالات الرَّعب داخل المجتمع ليست ظرفية .

ونتيئاً أخيراً أنَّ الرَّعب كان منتشرأً مكانياً انتشاره زمنياً فنجد به بالبادية كما نجده بالمدن كخراسان والموصل وغيرهما .

فنستنتج من ذلك أنَّ الرَّعب هو حالة عامّة وشاملة قد سيطرت على أجزاء كثيرة من المجتمع في القرن الرابع للهجرة .

وقد تفاقم انعدام الأمن داخل المجتمع حتى صار الناس غير آمنين في مساكنهم على حريمهم وأموالهم وأنفسهم ، فخلال ثورة العيارين سنة 362 للهجرة ، دخل النّهابة منزل التوحيدى وقتلوا جاريتة وأخذوا أمواله وممتلكاته يقول واصفاً ذلك « جاءت النّهابة إلى ما بين السورين وشنّوا الغارة واكتسحوا ما وجدوا في منزلي من ذهب وأثاث وثياب وما كُنت ذخرتة من تراث العمر وجردوا السّكاكين على الجارية في الدّار يطالبونها بالمال فانشقت مراتها ودفنت في يومها »<sup>(50)</sup> وما يؤكّد هذه الظاهرة قول أبي حيّان في الليلة العشرين واصفاً آثار الصّراع المذهبي في المجتمع : « فسفكت الدّماء واستبيح الحريم وشنت الغارات وخرّبت الدّيارات »<sup>(51)</sup> . ويّدعم قول الوزير ابن سعدان ذلك فهو يتحدّث عن اختلاف المذاهب متسائلاً : « من أين دخلت الآفة على أصحاب المذاهب حتى افترقوا هذا الافتراق . . . وخرجوا إلى . . إباحة الدم والمال »<sup>(52)</sup> .

وإذا كان الأمن داخل المساكن غير متوفر فمن الطبيعي أن يكون بالشوارع كذلك .فالتوحيدى يحدّثنا عن « انسداد الطرق وتخطف الناس للناس »<sup>(53)</sup> . وقد صار نتيجة لذلك الانتقال من مكان إلى آخر محاطاً بالمخاوف الكبيرة وفقدت النفوس

(49) ج 3 ص 192 .

(50) ج 3 ص 161 - 162 .

(51) ج 2 ص 77 .

(52) ج 3 ص 186 .

(53) ج 3 ص 92 .

الاطمئنان وصارت السلامة مستحيلة . يقول ابن الجلاء الزاهد متحدّثاً عن استحالة شعور الإنسان بالاطمئنان في مثل ذلك العصر : « وأنى له بالسلامة مع هذه النيران التي طافت بالشرق والغرب وأتت على الحرث والنسل »<sup>(54)</sup> ونطالع في ثنايا الكتاب حادثة وقعت لابن معروف قاضي القضاة ببغداد تدلّ على شدّة انعدام الأمن داخل المجتمع « فبينما كان مجتازاً باب الطاق تعلّق به أحد المجرّان وسأله عن مذهبه (مرعوشي أم فضلي)<sup>(55)</sup> فاستشعر الخوف من هذا السؤال وتمكّن من التخلص من ذلك الخرج بالحيلة والجواب الرقيق<sup>(56)</sup> .

نتبيّن من خلال هذه الأمثلة أن المجتمع قد سادته الفوضى وغلب على سكّانه الخوف على ممتلكاتهم وأنفسهم . فهل من سبب يفسّر تفاقم هذا الأمر في القرن الرابع للهجرة ؟ .

هناك أكثر من سبب وراء هذه الظاهرة . ولعلّ الدافع الاقتصادي هو من أبرزها في الامتاع والموانسة « فالحرمان الشديد الذي كانت تعانيه العامّة من كثرة الفقر كان من الطبيعي أن ينتج ردود فعل عنيفة ودامية تقضّ عن المجتمع أمنه ، - إذ لا أمن - مع الحرمان والجور » وهذا ما أتاه العيّارون سنة 362 هـ عندما بثّوا الرعب في الناس واستباحوا نهب المال وقتل النفوس<sup>(57)</sup> . فتورّتهم تجسّم ردّ الفعل العنيف والنّاقم على سوء توزيع الثروات بين الطبقات الاجتماعية ، وهو ردّ فعل الناس المكبوتين الذين ما أن وجدوا الفرصة سانحة حتّى انطلقوا ينتقمون من الغني والفقير دون تمييز .

ولنفس هذا السبب كان تظاهر العامّة ضد الوزير ابن سعدان عندما نزل ليركب المركب ، فقد اشتكوا فقرهم وخصاصتهم<sup>(58)</sup> وليس هناك شكّ في أن التظاهر يدلّ على انعدام الأمن داخل المجتمع .

ولإلى جانب هذا السبب الاقتصادي ، نجد سبباً سياسياً يفسّر لنا انعدام الأمن الاجتماعي ؛ فعدم اطمئنان الرعية لسلطانها ولسياسته وفقدانها الثقة في قدراته على حمايتها

---

(54) ج 2 ص 79

(55) نسبة إلى فضل ومرعوش وهما ساعيان استخدمهما « معزّ الدولة » ليكونا رسولين بينه وبين أخيه « ركن الدولة » ويمرور الأيام لهج الناس بهما لأنّ أحدهما كان ساعي السنة والآخر ساعي الشيعة .

(56) ج 3 ص 181 .

(57) ج 3 ص 161 - 162 .

(58) ج 2 ص 151

من المخاطر الدّاخلية والخارجية ، يجعلها تضطرب ويسيطر عليها الخوف لإبسط خطر يداهم البلاد ، وهكذا فقد المسلمون اطمئنانهم وداخلهم الرعب والهلع سنة 362 هـ لما هاجم الرّوم بعض المدن الإسلامية لسبب يقول عنه التوحيدى أنّه تافه : « كان أوّل هذه الحادثة الفظيعة البشعة التي حيرت العقول وهلت الأبواب وسافر عنها التوفيق واستولى عليها الخذلان وعدمت فيه البصائر البصائر شيء كلاً شيء »<sup>(61)</sup> . فلنلاحظ التقابل الكبير بين السبب ( شيء كلاً شيء ) والنتيجة وهي ضياع المجتمع وفقده القدرة على السيطرة على الأحداث . وما كان ذلك ليحصل لو لم يكن الأمير عزّ الدولة مشغولاً بتلبية شهواته . ومن الأسباب السياسية أيضاً وراء انعدام الأمن كثرة الظلم كما حدث بخراسان سنة 370 هـ ، فقد وقع تمرد أدّى إلى حرب داخل الدولة السامانية فقد خلالها الناس « القدرة على السياحة لانسداد الطرق وتخطف الناس للناس وشمول الخوف وغلبة الرعب »<sup>(59)</sup> .

ومع هذين السببين السياسي والاقتصادي نجد سبباً آخر وهو تعدّد الفرق المتناحرة في ما بينها ، وقد تعصّب الناس كلّ لفرقة حتّى استبيح الدم والمال وفقد المجتمع أمنه « وسكينته . يقول الوزير ابن سعدان واصفاً هذا الأمر في سؤاله للتوحيدى عن سبب اختلاف المذاهب : « من أين دخلت الآفة على أصحاب المذاهب حتّى افترقوا هذا الافتراق وخرجوا إلى . . . إباحة الدم والمال »<sup>(60)</sup> . ويقول أبو حيّان متحدثاً عن الأمر نفسه مبرزاً نتائج تعدّد الفرق : « من نتائجها هذه الفتن والمذاهب والتعصّب والإفراط . . . وصار الناس أحزاباً في النّحل والأديان فهذا نصيري وهذا أشجعي وهذا جارودي وهذا قطعي . . . ومن لا يحصى عددها إلّا الله »<sup>(61)</sup> .

ويفسّر التوحيدى ثورة العيّارين سنة 362 هـ بالأمر نفسه يقول : « وطائفة وجدت فرصتها في العبث والفساد والنهب والغارة بواسطة التعصّب للمذهب »<sup>(62)</sup> .

وصارت بعض هذه المذاهب تحمي الثّوار وتواليهم « فقد التجأ أسود الزّبد بعدما أغار ونهب خلال ثورة العيّارين إلى نقيب الشيعة ببغداد ، أبي أحمد الموسوي . واحتمى

(59) ج 3 ص 92 .

(60) ج 3 ص 186 .

(61) ج 2 ص 76 - 77 - 78 .

(62) ج 3 ص 151 .

به وصار من رجاله<sup>(63)</sup> ، وهذا ما يدعم الرأي القائل بأن المذاهب هي وراء الثورات الدامية التي بثت الرعب في الناس وزلزلت أمن المجتمع .

نستنتج أن انعدام الأمن داخل المجتمع في القرن الرابع للهجرة كان مطلقاً وهو يعكس تفكك هذا المجتمع لأن العناصر التي كانت تبث فيه الذعر والرعب هي عناصر داخلية في أكثر الأحيان . فالخوف الذي بثه العيارون في سنة 362 هـ أشد من الذي أحدثه الروم خلال مهاجمتهم لديار الإسلام .

كما نتبين أيضاً أن هذا المجتمع قد غلب عليه التعصب وسادته إرادة الانتقام الأمر الذي يجعله مجتمعاً متصدعاً في أبرز ركائزه الأمنية .

ومما لا شك فيه أن الأحوال الاجتماعية التي سبق الحديث عنها من تباين طبقي وسلوكي وجنسي ( أي بين الأجناس ) ومن انعدام الأمن سيكون لها أثر كبير على أخلاق الناس وسلوكهم . لأن الأخلاق في قسم كبير منها تكون وليدة أحوال البيئة التي توجد فيها : ونحن لا نتظر طبعاً من مجتمع متفكك ومتباين أن تكون الأخلاق الغالبة على أهله أخلاقاً حسنة .

فلقد استعرض أبو حيان في كتاب الامتاع والمؤانسة مظاهر كثيرة من الفساد الأخلاقي داخل المجتمع وأطال الحديث عنها : فمن أبرز تلك المظاهر انقلاب القيم الأخلاقية . يقول في مقدمة الكتاب مخاطباً صديقه أبا الوفاء المهندس يشكو أحوال العصر : « وقد صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً »<sup>(64)</sup> ويدعم ابن البقال هذا الرأي بقول يبين فيه اختلاط الخير بالشر : « ولكن لما التبس الحق بالباطل والباطل بالحق قلت : إن الأدلة عليهما ولهما متكافئة وأنها موقوفة على حلق الحاذق في نصرته وضعف الضعيف في الذب عنه »<sup>(65)</sup> إننا لا نعتقد أن هناك فساداً أخلاقياً أكثر من ذلك الذي يجد الناس فيه للمنكر حججاً يدافعون بها عنه ويتصرفون له ، ومن العجيب أن الاستدلال للباطل قد تساوى في القوة مع الاستدلال للحق .

ومن علامات انقلاب القيم الأخلاقية ما وقع بين أبي حيان التوحيدي وصديقه أبي الوفاء المهندس الذي أوصله إلى مجلس ابن سعدان ، فقد حفظ التوحيدي أسرار

(63) ج 3 ص 171 .

(64) ج 1 ص 17 .

(65) ج 3 ص 195 .

الحديث الذي جرى بمجلس الوزير اعتقاداً منه أن الأمانة توجب عليه ذلك « وصوناً لنفسه عن الرذائل يقول معللاً لصديقه كتماناً لسر الحديث بينه وبين ابن سعدان « وحسبت أنني ان بدأت بشيء منه رذلتني عليه وتنقصتني به وزريت عليّ فيه وأنتك ربما قلت هلاً كضمت على جرّتك وطويت ما بين جنبيك وما عليّ ممّا يدور بين الصّاحب وخادمه والرؤساء والناظرين في أمور الدّهماء »<sup>(66)</sup> .

لكن أبا الوفاء رأى في أمانة التوحيد خيانة له ، فأخذ يعنفه أشدّ تعنيف ويقرع سمعه بأقسي السباب والتهديد طالباً منه اطلاعه على كلّ ما دار بينه وبين ابن سعدان حتّى كأنّه كان : ( شاهدأً معها أو رقيباً عليها أو متوسطاً بينهما )<sup>(67)</sup> وهذّده بأنّه سينزل به العقاب الذي يندم بعده أحرّ ندم وأخذ في شتمه وتذكيره بضعة منزلته الاجتماعية قائلاً : « وكأنيّ بك أصبحت حرّان حيران يا أباحيان ، تأكل إصبعك أسفاً وتزدرد ريقك لهفاً على ما فاتك من الحوطة لنفسك ، والنظر في يومك لغدك والأخذ بالوثيقة في أمرك ، أتظنّ بغارتك وغمارتك وذهابك في فسولتك التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدياء الأردياء أنك تقدّر على ذلك »<sup>(68)</sup> .

ألم يكن جديراً من الوجهة الأخلاقية أن يكبر أبو الوفاء المهندس في أبي حيّان حُسن أخلاقه وأمانته ؟ لكن وقد انقلبت القيم عنده صار يرى الفضيلة رذيلة يستحق صاحبها أقسى عقاب .

في هذا الإطار من انقلاب القيم الأخلاقية ، عرف المجتمع غياب قيم وبروز أخرى . وقد أبرز أبو حيّان في مقدمة الكتاب خاصّة وفي ثناياه عامّة أهمّ القيم التي فقدت من حياة الناس بعدما كان لها دور كبير في تماسك المجتمع وجعله مجتمعاً خييراً تسوده الأخلاق الفاضلة ؛ ومن أبرز الأخلاق المفقودة التواصي بالخير والتناهي عن الشرّ والتراحم بين الناس والبذل وإيثار الغير على النفس<sup>(69)</sup> .

إنّ لهذه القيم الأخلاقية أبعاداً اجتماعية فهي رمز التعاون في الخير بين الناس وهي التي تجعل علاقتهم ببعض البعض ليّنة مبنية على التوادد ، فالتواصي بالخير والتناهي

(66) ج 1 ص 12 .

(67) ج 1 ص 7 .

(68) ج 1 ص 7 .

(69) ج 1 ص 16 .



عن الشرّ يبرز محبة الإنسان لأخيه الإنسان وكذلك الرحمة والإيثار .

وغياب هذه القيم من المجتمع يجعل الناس يعيشون منطوين على أنفسهم تسيطر عليهم الأنانية ويغلب التوتر على علاقاتهم ، وإن مجتمعاً لا يتواصى فيه الناس بالخير ولا يتناهون عن الشرّ هو المجتمع الأنانيّ .

ومن القيم المفقودة من المجتمع في القرن الرابع للهجرة ذكر التوحيدي التأسّي عند الشدائد والأمانة والتعقّف<sup>(70)</sup> وهي قيم ذاتية تتعلق بالفرد أولاً وقبل كلّ شيء لكننا نجد لها أثراً اجتماعياً هاماً ؛ فهي علامات الصّلاح الدّاتي وتحلّي الإنسان بالفضائل . وإن توفر هذه القيم في كثير من الناس يجعل المجتمع صالحاً وغيابها يجعله فاسداً .

وقد افتقدت مثل هذه الأخلاق من المجتمع في القرن الرابع للهجرة يقول التوحيدي متحدثاً عن مظهر من فساد الناس «ان استنصحته غشك»<sup>(71)</sup> ويقول مبرزاً فساد أخلاق التجّار قد تعاطوا المنكر حتى عُرِف وتناكروا المعروف حتى نُسي<sup>(72)</sup> وهذا الافتقاد هو علامة على الفساد الأخلاقي فردياً وجماعياً . وقد نفّشت في المجتمع قيم أخلاقية أخرى طبعت حياة الناس ، وهذه القيم تعكس تردّي الأخلاق فعلاً وقولاً :

فقد غلب حبّ المال والتكالب على جمعه بشقّي الوسائل على الخاصّة والعامة والعلماء فصار ذلك من علامات التميّز الاجتماعي ، يقول أبو حيان واصفاً هذا الأمر « وصار الأمر على أن يقال فلان . . جيد في الاستخراج ، مدبّر للأموال ، بذول للجهد » معروف بالاستقصاء لا يفضي عن دائق ولا يتغافل عن قيراط<sup>(73)</sup> .

ويحدّثنا التوحيدي عن التجار وعن تحيلهم في معاملات البيع والشراء توفيراً للربح الكبير بطرق غير شرعية يهدرون معها القيم الأخلاقية ويبيعون الدّين ، فإذا باعوا بضاعة قووا الإيمان على البهتان ، وإذا اشتروا أخرى « أعنتوا لسان الميزان ليأخذوا بنقصان » وإن الواحد منهم « يرضى لك ما لا يرضى لنفسه »<sup>(74)</sup> . ولا يرى في ذلك حرجاً أو تعدّياً على القيم الأخلاقية بل يعتبره « حذقاً بالتكسب ورفقاً بالمطلب وعلماً بالتجارة وتقديماً في الصناعة »<sup>(75)</sup> .

(70) ج 1 ص 17 - 18

(71) و(72) ج 3 ص 62 .

(73) ج 1 ص 17 - 18 .

(74) و(75) ج 3 ص 62 .

ويعلّق الوزير على أخلاق التجّار بقوله : « فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاق إلاّ شائعة في أصناف الناس من الجند والكتّاب والتّناء والصّالحين وأهل العلم »<sup>(76)</sup> . وهذا ما يدلّ على عمق الفساد الأخلاقي وشموله كلّ فئات المجتمع .

وشهادة ابن سعدان هذه لها ما يدعّمها في الكتاب ، فأهل العلم قد حرصوا جمع المال وتوفيره بوسائل متعدّدة فهذا أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة<sup>(77)</sup> (توفي عام 398 هـ) لولا «توزّع فكره في التجارة ومحبّته في الرّبح وحرصه على الجمع وشدّته في المنع لكانت قريحتّه تستجيب له . . . ولكنه مبدّد مندّد وحبّ الدنيا يعمي ويصم»<sup>(78)</sup> . وهذا ابن السمع من أهل المنطق ببغداد (توفي عام 318 هـ) «مستفرغ ، مُعّ البال ، مأسور العقل يأخذ الدائق والقيراط والحبة والطسوج والفلس بالصّرف والوزن والتطفيف»<sup>(79)</sup> . وهذا مسكويه (توفي عام 421 هـ) محترق في البخل بالدائق والقيراط والكسرة والخرقة»<sup>(80)</sup> . وقد اتّخذ الداركي (توفي عام 375 هـ) من مهنة القضاء مكسبة لجمع المال فصار قارؤن زمانه «وهو يأكل الدّين بالدنيا»<sup>(81)</sup> . ويأتي الفواحش بكلّ أصنافها .

هذه الأمثلة العديدة والمتنوعة تصوّر بوضوح حرص الناس على جمع المال من تجّار وعلماء وغيرهم . والظّاهرة في ذاتها لا عيب فيها ، فمن الطبيعي أن يسعى الإنسان إلى الكسب الذي يمكنه من الحياة الكريمة ؛ وللكسب أوجه شرعية وأخلاقية نحصل بها عليه . ولكن عندما يصبح الناس يكسبون المال عن طريق الزّور والتحايل ويتخذونه للجمع في ذاته ولا ينفقونه في مصالح الدين والدنيا ، فإننا نرى في ذلك فساداً أخلاقياً واجتماعياً واضحاً ، إذ الذين يجعلون المال في حدّ ذاته هدفاً لا يتوانون عن إلحاق المضرّة بغيرهم من الناس ملقين بالأخلاق الحسنة جانباً ، ملين رغائب الأنانية في أنفسهم .

والمجتمع الذي تقود الأنانية أصحابه هو مجتمع مفكّك الأوصال رخو البناء يهتزّ لأقلّ الشّدائد خطراً ، وقد رأينا المجتمع في القرن الرّابع للهجرة من خلال كتاب الامتاع

---

(76) ج 3 ص 62 .

(77) فيلسوف نصراني كان يحضر مجالس ابن سعدان .

(78) ج 1 ص 33 .

(79) ج 1 ص 34 .

(80) ج 1 ص 36 .

(81) ج 1 ص 141 .

والمؤانسة تدخله الفوضى وسيطر على سكّانه الرعب لأصغر الشدائد « كما وقع سنة 362 للهجرة في هجوم الروم على المسلمين .

ومن مظاهر الفساد الأخلاقي المنتشرة بين الناس تفشي الفحش قولاً وفعلًا . وقد كان لكثرة الجوّاري والغلمان أكبر الأثر في ذلك ، فقد لهج بهم الناس وقربوهم وبذلوا في سبيلهم الأموال الطائلة للتمتّع بهم ظرفاً وغناء وجسماً . وقد ذكر التوحيدى في ثنابا الكتاب أسماء المخنثين والمجان الذين اشتهروا في عصره كالمخنث ممشة والمخنث المعروف « بالغريب » والآخر المعروف « بدجاجة » والماجن المعروف « بالغراب »<sup>(82)</sup> وقد اشتهر الغلمان بالغناء وشغل بعضهم الناس في وقتهم كذلك ( الصبي الموصلى ) الذي « فتن الناس وملأ الدنيا عيارة وخسارة وافتضح به أهل النسك والوقار وأصناف الناس من الصغار والكبار بوجهه الحسن وثغره المبتسم وحديثه السّاحر وطرفه الفاتر وقده المديد ولفظه الحلو ودله الخلوب وتمنعه المطيع وأطاعه المنع وتشكيكه في الوصل والهجر . . . وهو فتنة الحاضر والبادي ومنية السائق والهادي »<sup>(83)</sup> .

يظهر من خلال هذا الاستشهاد تأثير هذا الغلام في الحياة الاجتماعية والحياة الأخلاقية وإنّ الحديث عن معالم جماله وعن سلوكه في إغراء الناس لأبرز دليل على التهنّك الأخلاقي الذي كانوا عليه عصر ذاك . وإلاّ فما معنى أن يفتن الناس كباراً وصغاراً بغلام ؟ .

ومن غريب ما جرى أنّ رجلاً يعرف بابن غسان البصري قد غرق نفسه لأسباب كثيرة من بينها « عشق أحرق كبده على غلام ( الأمدي الحلّوي ) »<sup>(84)</sup> .

ومن الغلمان الذين اشتهروا وفتنوا الناس ( علوان ) غلام ابن عرس فإنه إذا حضر المجلس تحدّث إلى الحاضرين حديثاً ظريفاً وقرب نفسه إليهم حتّى « لا يبقى من الجماعة أحد إلّا وينبض عرقه ويهشّ فؤاده ويذكو طمعه ويفكه قلبه ويتحرّك ساكنه ويتدغدغ روحه ويومئ إليه بقبلته ويغمزه بطرفه ويخصّه بتحية . . . »<sup>(85)</sup> فنلاحظ في هذا الوصف تأثير هذا الغلام في الحاضرين فهو يوقظ فيهم الطمع الشهواني الذي يسيطر على

(82) ذكر أبو حيّان هذه الأسماء بالليلة الثامنة عشرة من الامتاع والمؤانسة ج 2 ص 50 إلى ص 60 .

(83) ج 2 ص 174 - 175 .

(84) ج 2 ص 169 .

(85) ج 3 ص 179 .

كَلَّ كَيَانُهُم الْحَسْبِيَّ وَالْوَجْدَانِي حَتَّى لَكَأَنَّهُمْ فَرَعُوا أَنْفُسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ مِنْ كُلِّ شَاغِلٍ إِلَّا مِنْ عَشْقِهِ .

إلى جانب انتشار الغلمان والمختئين في المجتمع « كثرت الجوارى والماجنات . ففي الليلة الثامنة عشرة<sup>(86)</sup> نجد التوحيدي يتحدث عن بعض الماجنات ويذكر أخبارهن وفي آخر الجزء الثاني من الكتاب يستعرض أسماء عدد كبير من الجوارى اللاتي اشتهرن بالغناء وقد شغلت بعضهن الناس كصبابة التي « زلزلت بغداد في وقتها »<sup>(87)</sup> كما يصف لنا حركاتهن أثناء الغناء وهي حركات كان الهدف منها إغراء أهل المجلس بالتدلل والتقتل مثل سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد . فهي إذا غنّت تشاجت وتدلت وتفتلت ، وتكسرت وتيسرت وقالت : « أنا والله كسلانة مشغولة القلب بين أحلام أراها رديئة وبخت إذا استوى التوى وأمر إذا ظهر عثر »<sup>(88)</sup> .

والتهتك الأخلاقي المنتشر في المجتمع كان على حساب قيم أخلاقية نبيلة تقلص وجودها منه أبرزها التعفف . وقد صارت للمجان مجالسهم الخاصة التي أشار التوحيدي إلى واحد منها « فقد اجتمعوا بالكوفة يوماً عند رجل يسمى ( حسون المجنون ) يصفون ملذات الدنيا ومن تلك الملذات ذكر صاحب المجلس « إتيان النساء الرعن والصبيان الزعر والمشي بلا سراويل بين يدي من لا تحتشمه والعريضة على الثقيل »<sup>(89)</sup> .

ولم يقتصر الفساد الأخلاقي على سلوك الناس فقط بل دخل لغتهم فمآزجها الكلام الفاحش الذي تعفف لقوله الأفواه الكريمة وتنزه عن الإنصات إليه الأسع الشريفة يقول ابن سعدان واصفاً فساد لغة الناس بأثر التعصب المذهبي « . . . خرجوا إلى التكفير والتفسيق وإباحة الدم والمال وردّ الشهادة وإطلاق اللسان بالجرح وبالقدح والتهاجر والتقاطع »<sup>(90)</sup> .

ونقتصر في هذا الموضع على الاستشهاد بأقل الكلام بداءة وفحشاء فنذكر شتم مخنث لآخر ، يقول له : « إنما أنت بيت بلا باب ، وقدم بلا ساق وأعمى بلا عصا ونار

(86) ج 2 من ص 50 إلى ص 60 .

(87) ج 2 ص 182 .

(88) ج 2 ص 173 .

(89) ج 2 ص 50 .

(90) ج 3 ص 186 .

بلا حطب ونهر بلا معبر وحائط بلا سقف»<sup>(91)</sup> . وقد شتم رجل آخر فقال : « يا رأس الأفعى ويا عصا المكاري . . . ويا سَطْحاً بلا ميزاب ويا عوداً بلا مضراب ويا فمّاً بلا ناب وسكيناً بلا نصاب ويا رعداً بلا سحب . . . ويا جسراً بلا نهر ويا قرأً على قرّ . . . يا ذنب الفار » يا قدراً بلا أبحار . . .»<sup>(92)</sup> .

إن هذه اللغة رغم خلوها من الألفاظ الفاحشة ، فإنها تعكس مدى الفساد الأخلاقي الذي ساد المجتمع فقد صار التشاتم فناً له قواعد لغوية وبلاغية .

وبلغ الفساد الأخلاقي داخل المجتمع حدّاً جعل الوزير ابن سعدان يعبر تقريباً عن يأسه من إمكانية إصلاح الحال يقول : « لقد حال الزمان على أمر لا يأتي عليه النعت ولا تستوعبه الأخبار . وما عجبني إلّا من الزيادة على مرّ الساعات ولو وقف لعلّه كان يرجي بعض ما قد وقع اليأس منه واعترض القنوط دونه»<sup>(93)</sup> .

ونجد في الكتاب تفسيرات لانتشار هذا الفساد فابن زرعة النصراي ( توفي عام 398 هـ ) يرى أن الأمر يعود إلى ضعف الدين والسياسة في نفس الوقت يقول : « هذا لأن الزمان من قبل كان ذا لبوس من الدين رائع وذو يدٍ من السياسة بسيطة ، فأخلق اللبوس وبلي بل تمزّق وفنيّ وضعفت اليد بل شلّت وقطعت»<sup>(94)</sup> . ويذهب أبو حيان في نفس التفسير تقريباً بقوله : « وقد كان الناس يتقلبون بسيط الشمس ( أعني الدين ) فغربت عنهم ، فعاشوا بنور القمر ( أعني المروءة ) فأفل دونهم » فبقوا في ظلمات البر والبحر ( أعني الجهل وقلة الحياء ) فلا جرّم أعضل الداء ، وأشكل الدواء » وغلبت الحيرة وفقد المرشد وقلّ المسترشد والله المستعان»<sup>(95)</sup> .

إنه من المنطقي جدّاً أن ينتشر الفساد في مجتمع لم يعد يأخذ أصول الأخلاق من منابع الدين ، خاصّة إذا كان ذلك المجتمع قد تعود عليها زماناً في الماضي شأن المجتمع الإسلامي « فقد استمدّ قيمه الأخلاقية من الإسلام وعمل بها زماناً قبل أن يتقلّص تأثير الدين في الحياة اليومية .

لكن ألا يوجد أناسٌ صالحون داخل هذا المجتمع ؟ .

(91) ج 2 ص 59 .

(92) ج 2 ص 59 - 60 .

(93) ج 3 ص 62 .

(94) ج 3 ص 63 .

(95) ج 2 ص 2 .

إنَّ الصورة العامة الغالبة على كتاب الامتاع والمؤانسة تبين مدى ما بلغه المجتمع من فساد أخلاقي وهو ما جعل التوحيدي ينفي صراحة في مقدمة الكتاب وجود أناس صالحين ، يقول : « وقد بلىنا بهذا الدهر الخالي من الديانين الذين يصلحون أنفسهم ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم »<sup>(96)</sup>. وقد أكد هذه الصورة عند حديثه عن رجالات عصره وعن أخلاقهم ، فبين فساد جلهم ، ولا نجد له إلا بعض الاستثناءات لرجال امتازوا بالتقوى وطيب الأخلاق من أبرزهم أستاذه أبوسعيد السيرافي ( المتوفى عام 368 هـ ) الذي كان فضلاً على نبوغه الفكري « يصوم الدهر ولا يصلي إلا في الجماعة » ويلي القضاء سنين ويتأله ويتحرَّج وغيره بمعزل عن هذا<sup>(97)</sup> . وهو أيضاً في رأي التوحيدي كان « بعيد القرنين لأنَّه كان يقرأ عليه القرآن والفقه والشروط والفرائض والنحو واللغة والعروض والقوافي . . . »<sup>(98)</sup> .

ومن الناس الذين وصف أبو حيان حسن أخلاقهم الوزير ابن سعدان فقد نبّه في أكثر من موضع بالكتاب إلى حسن أخلاقه من تواضع<sup>(99)</sup> وعفو وحلم وجود<sup>(1)</sup> وغيرها من الصفات الحميدة . يقول التوحيدي مخاطباً الوزير معجباً بأخلاقه : « وما هذا من سجايا البشر إلا أن يكون فاعل هذا نبياً صادقاً ولياً لله مجتبي »<sup>(2)</sup> .

ونحن إذ نحترم شهادة أبي حيّان التوحيدي فإننا نحترز بشأن مبالغته في إبراز فضائل ابن سعدان . ولعلّ هذه المبالغة عائدة إلى الضغوط المتنوعة والمتعدّدة المسلّطة على أبي حيّان خلال تأليف الكتاب . فلا ننسى أن التأليف موجّه إلى أحد أصدقاء الوزير من ناحية « وأنّ أبا حيّان يرجو من تأليفه تدخلاً من أبي الوفاء عند الوزير ليذكره ببعض العطايا حتّى تنفّرج أحواله من ناحية أخرى ؛ لكننا رغم ذلك لا نشكّ في أن ابن سعدان تميّز بأخلاق طيبة .

وهذه الاستثناءات النادرة ، ليس لها تأثير كبير على أخلاق الناس الذين دعّتهم أهواؤهم فركبوها ، وذلك ما يفسّر قتامة الصورة المقدّمة عن أخلاق الناس عموماً .

(96) ج 1 ص 16 .

(97) ج 1 ص 132 .

(98) ج 1 ص 133 .

(99) ج 1 ص 22 .

(1) ج 3 ص 223 .

(2) ج 3 ص 223 .

إن تحليلنا لخصائص الحياة الاجتماعية في القرن الرابع للهجرة من خلال كتاب الامتاع والمؤانسة يجعلنا نقف على الملاحظات التالية :

- تفكك المجتمع في بنائه الطبقي وفي وحدة الأجناس المتعايشة به .

- تحلل القيم الأخلاقية فيه وسيطرة الميوعة على سلوك الناس .

ونتيجة لهذا نرى أن هذا المجتمع صار مهتداً في كيانه إذ أنه صار يفتقر إلى أشد ما يحتاجه اجتماع الناس من توادد بينهم وتعاطف وتراحم ومن حسن الأخلاق . والخطر الكبير المترتب على المجتمع خطر داخلي أكثر منه خارجي .

فما موقف أبي حيان من هذا الوضع ومن الأخطار التي تهدد المجتمع الإسلامي :

نشير هنا أيضاً إلى أن مواقف أبي حيان التوحيدى من مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية متوزعة عبر كل أقسام الكتاب ، ولهذا فقد عمدنا إلى جمعها وتحليلها فوقفنا إثر ذلك على أبرز آراء المؤلف في أحوال مجتمعه ثم بينا مدلولات تلك الآراء اجتماعياً وحضارياً .

لقد تفاعل أبو حيان مع الأحداث الاجتماعية في عصره بكامل وعيه الفكرى وكلّ تيقظه الوجداني فجاء وصف الواقع مصطبغاً برؤيته للمحيط الذي يعيش فيه . وأول ما يثير انتباهنا هو تركيز المؤلف على إبراز مواطن الفساد ومواضع الضعف داخل المجتمع حتى وكأنه يريد إبرازها ليعبر بذلك عن رفضه لها وعن عدم رضاه بالقيم الاجتماعية والأخلاقية السائدة بين الناس .

ويطالعنا التوحيدى في مقدّمة الكتاب بالحديث عن « الشكية الطويلة اللادعة والبلية العامة الشاملة »<sup>(3)</sup>. وهي شكيته من انقلاب القيم ومن انعدام التعاون بين الناس ومن سيطرة النزعة المادية داخل المجتمع .

إن هذه الشكوى تعبر عن ضيق أبي حيان بوضع المجتمع الذى عاش فيه وهو ضيق شديد بلغ حدّ الألم « وهذا الوضع اعتبره المؤلف ( بلية شاملة ) لتأكيد عمق الفساد المسيطر على البلاد .

ومن مظاهر ضيقه وقلقه توقفه على سرد علامات الفساد بمجتمعه وذلك صوناً لنفسه ولقلمه عن تدوين أمور مخجلة ، يقول : « إلى غير ذلك مما يأنف العالم من تكثيره والكاتب من تسطيره »<sup>(4)</sup> .

---

(3) و(4) ج 1 ص 18

وقد أبدى أبو حيان تحسراً عميقاً آله المجتمع من تشتت واضطراب نتيجة تكاثر الفرق به وبثها الرعب والفساد بين الناس حتى صار « طالب الحق حيران »<sup>(5)</sup>. وحتى شمنت بالإسلام الأمم الأخرى من يهود ونصارى ومجوس ، يقول في هذا المعنى : « ولا جرم شمت اليهود والنصارى والمجوس بالمسلمين ، وعابوا وتكلموا ووجدوا أجراً وجصاً فبنوا وسمعوا فوق ما تمنوا فرووا »<sup>(6)</sup>. وما من شك في أن التحسر يعبر عن ضيق نفسي سيطر على أبي حيان . وقد خلف « فساد الناس وحؤول الزمان » فيه « وجعاً أليماً » . والرجع هنا طبعاً مظهر من مظاهر الضيق والألم النفسي .

إن تأملنا في أسباب قلق التوحيدي يؤكد لنا أنها أسباب عميقة لا تتعلق بمظهر واحد من مظاهر الفساد الاجتماعي ، وإنما هي متعلقة بما آلت إليه كل أحوال الناس الدينية والأخلاقية والاجتماعية من تراجع وتردد وبهذا يكون قلق المؤلف تعبيراً عن خوفه على غد المجتمع إزاء أقوام تربيص به الزلة والسقوط للطعن فيه والإطاحة به .

وهذا الموقف المتسم بالخوف والقلق والضيق يدل على رفض التوحيدي للوضع الاجتماعي السائد وعن توفقه إلى وجود وضع أفضل يكون فيه المجتمع آمناً على غده .

وإلى جانب هذا الموقف العام الذي عبر عنه تبرم الكاتب بأحوال المجتمع نجد مواقف كثيرة أخرى اتخذها التوحيدي من خصائص الحياة الاجتماعية التي سبق التعرض إليها .

ففي ما يتعلق بالتباين بين الخاصة والعامة نلاحظ أن حديث أبي حيان عن ترف الأولى كان في إطار إبراز فساد سياسي أو أخلاقي لأفرادها من ذلك نقده لأبي الفتح بن العميد في آخر الكتاب . فقد أراد أن يبين تلهيه عن شؤون الدولة وانغماسه في ترف الملذات من مأكّل ومشرب وغناء وجنس<sup>(7)</sup>. ولنفس الغاية نقد التوحيدي الوزير محمد بن بقية فبين أن من أبرز عيوبه إلى جانب الظلم السياسي إغراقه في الملذات إذ أنه « طار بجناح اللهو والعزف والشرب والقصف وملّ نعمة الله عليه »<sup>(8)</sup> .

أما حديثه عن العامة فهو مركّز في أغلب الأحيان على إبراز شدة الحرمان الذي تعانيه ، وعلى ما يلحق أصحابها من فقر وخصاصة وجوع . والهدف من إبراز هذه

(5) ج 2 ص 77 .

(6) ج 2 ص 78 .

(7) ج 3 ص 217 - 218 .

(8) ج 3 ص 216 .



الصورة المقابلة لترف الخاصة تحسيس أبي حيان للوزير ابن سعدان عساه يجتهد للأخذ بيد المحرومين ، وفعلًا هذا ما حصل عندما خفّض الوزير من سعر الخبز إثر استماعه على لسان أبي حيان لشكوى العامة من الفقر والخصاصة والجوع<sup>(9)</sup> .

لهذا فإننا نعتبر أنّ التوحيدي يقف إلى جانب العامة ويناصرهما وهويناهض هذا التباين الفاحش بين المحظوظين والمحرومين وهذا الموقف لا غرابة فيه سيّما إذا عرفنا أنّ كتاب الامتاع والمؤانسة يصوّر لنا شدة الخصاصة التي عاشها المؤلف حتّى أنّها حملته على الاستجداء وبيع ماء وجهه للخروج من الفقر . يقول مصوّرًا ملله من الحرمان في رسالة وجهها إلى أبي الوفاء المهندس وأثبتها في نهاية الجزء الثالث من الكتاب « إلى متى الكسيرة اليابسة والثّقيلة الذاوية والقميص المرقع إلى متى التأدّم بالخبز والزيتون ؟ قد والله بحّ الحلق وتغيّر الخلق ، الله الله في أمري ، اجبرني فإنني مكسور اسقني فإنني صمد أغثني فإنني ملهوف شهّري فإنني غفل حلّني فإنني عاطل »<sup>(10)</sup> .

ونجد أبا حيان يقول في مقدّمة الكتاب : « نعوذ بالله من الفقر »<sup>(11)</sup> . فتتأكد من خلال هذه الجملة أنّ الفقر خطب كبير وجب أن نحتمي بالله منه .

إن رجلاً كابد الفقر وعرف أحوال الخصاصة والحرمان والجوع لا يمكنه إلا أن يكون مناصراً لأمثاله من الضعفاء والفقراء .

لكن هل كانت مواقف التوحيدي دائماً مناصرة للعامة ؟

لقد وجدنا في كتاب الامتاع والمؤانسة أنّ التوحيدي قد اتخذ موقفاً مناهضاً لشورة العيّارين - وهم أشدّ الناس خصاصة ومهانة في المجتمع كما بيّنا في ما سبق وقد دلّت الكلمات التي وصف بها أعمال العيّارين على ذلك ، يقول : « كلّ ما كنّا فيه كان غريباً بديعاً عجيباً شنيعاً »<sup>(12)</sup> . ويقول أيضاً : « لما حلّت النفرة أعني لما وقعت الفتنة وفشا الهرج والمرج »<sup>(13)</sup> . كما يصف الثائر المعروف بأسود الزيد قائلاً : « وظهر منه شيطان في مسك إنسان »<sup>(14)</sup> . كما يقول فيه : « فمما ظهر من حسن خلقه مع شرّه ولعنته وسفكه للدمّ

(9) ج 2 ص 26 .

(10) ج 3 ص 227 .

(11) ج 1 ص 16 .

(12) و(13) ج 3 ص 160 .

(14) ج 3 ص 161 .

وهتكه للحرمة وركوبه للفاحشة وتمردّه على ربّه القادر ومالكة القاهر . . . الخ»<sup>(15)</sup>. فإذا تأملنا في كلمات ( النهر والفتنة والمهرج والمرج والشيطان ) وبقية العيارات التي وصف بها أسود الزيد نجد أنّ التوحيدي غير راض عن أعمال العيارين وهو بذلك يعارض أبرز ثورة اجتماعية للعامة صوّرها كتاب الامتاع والموانسة .

فما هو السبب يا ترى ؟ .

نجد في الكتاب ما يفسّر ذلك : فالعيارون في ما يبدو قد استغلّوا فرصة الدعر الذي داهم الناس اثر مهاجمة الرّوم للبلاد للنهب والسلب والغارة فكأنّهم أرادوا أن يتقمّوا في ذات الوقت من المجتمع كلّ لما أصابهم من فقر ماديّ ومهانة معنوية ، فلم يميّزوا بين الغني والفقير محدثين الفوضى العامة بالبلاد .

وقد كان أبو حيّان التوحيدي أحد المتضرّرين من هذه الأعمال إذ قد هاجم العيارون بيته وسلبوا ما وجدوا فيه من مال وأثاث وقتلوا جاريته ، فبات الرجل معدماً لا يملك « مع الشيطان فجرة ولا مع الغراب نقرة »<sup>(16)</sup> .

فهل ننتظر من رجل أضحى مفلساً أن يؤيّد ثورة الذين نهبوه وسلبوه ؟ إلّا أننا رغم هذا الموقف المناهض لثورة العيارين فإننا نجزم بأن المؤلف مناصر للعامة في توقها إلى تحسين أوضاعها الماديّة . ولعلّ مناصرته لها تتعدّى الجانب الاجتماعي لتكون مناصرة سياسية ، فقد دافع عنها لما غضب الوزير ابن سعدان من شدّة تتبعها للأخبار السياسية « ورأى أنّ رجل السياسة يجب أن لا يحقّ على العامة » بل عليه أن يعذرّها إذا حرصت على معرفة كل كبيرة وصغيرة من أخبار ملوكها لأنها ملكتهم نواصيها وخيراتها . والعلاقة بين الملك والرعية علاقة محكمة على التوادد والخير لا على الشحنة والبغض ، يقول في هذه المعاني ناقلاً أحاديث أبي سليمان السجستاني : « وبسبب هذه العلاقة المحكمة والوصلة الوشيقة لهجت العامة بتعرّف حال سائسها والناظر في أمرها والمالك لزمّامها حتّى تكون على بيان من رفاهة عيشها وطيب حياتها . . . »<sup>(17)</sup> .

وقد اتخذ التوحيدي موقفاً واضحاً من الصّراع بين الأجناس ، فحاول في تحليله لخاصية كلّ جنس إبراز سلبياته وإيجابياته والتزام الموضوعية في الحكم يقول : « لكلّ أمة

(15) ج 3 ص 161 .

(16) ج 3 ص 126 .

(17) ج 3 ص 87 .

فضائل ورذائل ولكل قوم محاسن ومساوىء ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلّها وعقدّها كمال وتقدير . وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق مفضوضة بينهم كلهم» (18) .

كان هذا منطلق أبي حيّان في إجابة الوزير عن سؤاله المتعلّق بتفضيل أمة على أمة وبدل أن يأخذ في استعراض فضائل كلّ جنس ورذائله ليفاضل بينها ، أهمل الحديث عن الأجناس الأخرى وذكر فضائل العرب التي كانت لهم منذ قبل الإسلام من « الشجاعة والنجدة والدّمام والضيافة والفتنة والخطابة والحمية والأنفة والحفاظ والوفاء والبذل والسّخاء والتهالك في حبّ الثّناء والنّكل الشديد عن الذّمّ والهجاء إلى غير ذلك ممّا خصّصت به في جاهليتها قبل الإسلام» (19) .

وبتأملنا في الفضائل المذكورة نجد أنها تمجّد أخلاق العرب وشهامتهم وتكافلهم الاجتماعي وبراعتهم الخطابية ممّا لا يدع مجالاً للشكّ أنّ أبا حيّان متعصّب للعرب « على بقية الأمم ، وخاصة منها الفرس إذ أنه في مخاطبته للوزير لم يتحدّث عن الأمم الأخرى إلّا حديثاً عابراً وأخذ في الردّ على الجيهاني الذي وضع كتاباً سبّ فيه العرب » واتّسم ردّ التوحيدى بالحلّة والعنف فهو يذكر فضائل العرب أولاً ثم يعقبها برذائل الفرس . والمتأمل في عنف مخاطبة التوحيدى للجيهاني يتأكّد أنّ المؤلّف يدافع عن العرب لغة وديناً وحضارة .

ويظهر في غير هذا الموضع من الامتناع والمؤانسة دفاع التوحيدى عن الجنس العربى وترذيله لأخلاق العجم وسلوكهم « يقول واصفاً غلبة أخلاق العجم وعاداتهم على أخلاق العرب « ألا ترى أن الحال استحالت عجباً كسروية وقيصرية ؟ » ثم يتساءل « فأين هذا من حديث النبوة الناطقة والإمامة الصادقة ؟ » (20) .

إنّ السؤال يحمل في ذاته موقف أبي حيان « وهو تفضيل الأخلاق العربية - ورمزها هنا النبوة والإمامة - على أخلاق الأعاجم .

ومن دلائل مناصرة التوحيدى للعرب أنه ما فتىء في كتابه يتحدّث عن أخلاقهم وآدابهم وحكمتهم ليذكر بالفضائل التي اندثرت من عصره فنراه يسرد لعمر بن

(18) ج 1 ص 73 .

(19) ج 1 ص 77 .

(20) ج 2 ص 76 .

عبد العزيز في آداب الطعام قولاً هذا نصّه : « ليس من المروءة أن تستخدم الضيف »<sup>(21)</sup>. ويذكر قولاً آخر لعبد الملك بن مروان ( ) في فائدة مجالسة الإخوان « قد قضيت الوطر من كلّ شيء إلا من مُحادثة الاخوان في الليالي الزهر على التلال العفر »<sup>(22)</sup>. والأمثلة في هذا الموضع لا تكاد تُحصى .

ويجب أن نؤكد أن لموقف أبي حيان هذا أبعاداً هامة . خاصة إذا عرفنا أن هذا الموقف قد اتخذته في مجلس ابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهية .

والبويهيون كما نعلم فرس حكموا أقاليم من البلاد الفارسية ثم حكموا بغداد بدءاً من سنة 332 هـ قبل أن يغلبوا سنة 448 هـ .

فأهمية الموقف إذن أنه يعبر عن شجاعة التوحيد في الجهر برأيه المناصر للعرب والمحقر للفرس في ظلّ دولة فارسية فكانّ الأمر يعتبر عنده مسألة مبدئية لا مجال لإخفائها مهما كانت الظروف والنتائج .

إلى جانب موقف التوحيد من التباين الطبقي ومن الصراع بين الأجناس « نجد في كتاب الامتاع والمؤانسة مواقفه من انقلاب القيم ومن الفساد الأخلاقي الذي تردى فيه المجتمع .

فهو يقول معلقاً على القيم الاجتماعية والأخلاقية التي سادت العصر : « وهذه كلها كنايات عن الظلم والتجديف والخساسة والجهل وقلة الدين وحبّ الفساد »<sup>(23)</sup>. هكذا يقيم أبو حيان عصره بعبارات تبين شدة معارضته للموضع الأخلاقي والاجتماعي وهو لا يتردد في ثنايا كتابه عن نقد مختلف مظاهر فساد عصره مهما كان مصدرها ؛ فتحدّث عن الفساد الأخلاقي عند رجال السياسة ووصف تهتكهم وإغراقهم في الشهوات ليوضح الأثر السيئ لذلك على سياسة البلاد . كما أنه لم يتردد في إبراز الفساد الأخلاقي عند العلماء فهذا أبو القاسم الداركي ( توفي عام 375 هـ ) : « اتخذ الشهادة مكسبة وهو يأكل الدنيا بالدين ويغلب عليه اللواط ولا يرجع إلى ثقة وأمانة ، ولقد تهتك بنيسابور قديماً وبغداد حديثاً »<sup>(24)</sup> . وهذا متى بن يونس القنائي ( توفي عام 328 هـ )

(21) ج 2 ص 68 .

(22) ج 1 ص 26 .

(23) ج 1 ص 18 .

(24) ج 1 ص 141 .

« كان يملئ ورقة بدرهم مقتدرتي وهو سكران لا يعقل »<sup>(25)</sup> .

مع هذه القيم التي يستهجنها نرى أبا حيان يورد قيماً أخلاقية أخرى يستحسنها وهي قيم تضاعل وجودها من المجتمع ، فهذا هو يقارن بين أخلاق أستاذه أبي سعيد السيرافي ( توفي عام 385 هـ ) وأخلاق أبي علي الفسوي ( توفي عام 377 هـ ) إمام وقته في علم النحو ليبين فضل الأول على الثاني ، يقول : « وأبو علي يشرب ، ويتخالع ويفارق هدي أهل العلم وطريقة الربانيين وعادة المستنسين » .

« وأبو سعيد يصوم الدهر ولا يصلي إلا في الجماعة ، ويولي القضاء سنين ، ويتأله ويتحرّج وغيره بمزل عن هذا »<sup>(26)</sup> .

نستنتج من هذه المقارنة أنّ التوحيدي في معارضته للفساد الأخلاقي يتوق إلى وجود قيم أخرى قوامها التدين والأخلاق الحسنة . ولهذا السبب استحسن شدة التقوى التي كان عليها ابن سعدان فامتدحه ودعا له بالخير قائلاً : « وهو . . . كثير التأله ، شديد التوقي » يصوم الاثنين والخميس ، فإذا كان أول رجب أصبح صائماً إلى أول يوم من شوال « وما رأينا وزيراً على هذا الدأب وبهذه العادة لا منافقاً ولا مخلصاً ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ تولاّه الله أحسن الولاية وكفاه أكمل الكفاية ، إنّهُ قريب مجيب »<sup>(27)</sup> . ولنفس السبب أيضاً أورد التوحيدي أحاديث كثيرة عن القيم الأخلاقية الفاضلة مبيناً محاسنها فذكر قول علي بن عيسى الرّماني في العفة : « العفة واسطة بين المقارفة والعصمة والعصمة واسطة بين البشرية والملكية »<sup>(28)</sup> . وذكر قول بعض العرب في الفتوة « ليس الفتوة الفسق ولا الفجور ولا شرب الخمر وإثماً الفتوة طعام موضوع « وصنيع مصنوع ومكان مرفوع ، ولسان معسول « ونائل مبذول « وعفاف معروف وأذى مكفوف »<sup>(29)</sup> . وقول أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز في ذمّ البخل : « أفّ للبخل لو كان طريقاً ما سلكته ولو كان ثوباً ما لبسته ولو كان سراجاً ما استضاءت به »<sup>(30)</sup> .

تعتبر هذه الأقوال ثورة على تردي القيم الأخلاقية والاجتماعية وطموحاً إلى سيادة

(25) ج 1 ص 107 .

(26) ج 1 ص 132 .

(27) ج 2 ص 79 .

(28) ج 3 ص 130 .

(29) و(30) ج 3 ص 6 .

قيم بديلة كانت موجودة في المجتمع الإسلامي ومكنته في الماضي أن يكون مجتمعاً خيراً يتعاون فيه الناس على شؤون دينهم ودنياهم فيتواصلون بالخير ويتناهون عن الشر ويتراحمون في ما بينهم .

ولم تقف مواقف أبي حيان من الفساد الاجتماعي والأخلاقي عند حدّ النقد وإظهار العيوب بل تجاوزتها إلى البحث عن الأسباب الأصلية لذلك الفساد .

والسبب الكبير في نظر أبي حيان لفساد الأحوال الاجتماعية والأخلاقية هو ضعف تأثير الدين الإسلامي في الحياة اليومية للناس فغابت بذلك عدة قيم كانت في الماضي دعامة قوة المجتمع الإسلامي . يصف المؤلف أخلاق الناس في العهد الماضي بقوله : « وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة » وإلى ضرائب مأمونة ، وإلى ديانات قويّة ، وأمانات ثخينة . وكان لهم مع الله أسرار طاهرة وعلانية مقبولة . ومع عباد الله معاملة جميلة ورحمة واسعة ومعدلة فاشية وكانت تجارهم في العلم والحكمة وعادتهم جارية على الضيافة والتكرمة<sup>(31)</sup> . وينفس السبب يشرح الفساد الذي أدخلته أخلاق الأعاجم إلى المجتمع لذا نراه يفضل السنّة النبوية على الآداب الأعجمية الجديدة . لأنّ السنّة في رأيه جامعة للآداب النبوي والأمر الإلهي ، يقول في نقده لميل أبي جعفر المنصور إلى الآداب الأعجمية « وهذا هو الجهل كأنه لا يعلم أنّ السنّة أشرف من الأدب ، بل الأدب كله في السنّة وهي الجامعة للآداب النبوي والأمر الإلهي »<sup>(32)</sup> .

فالتوحيدي إذن يرجع أصل الفساد الأخلاقي والاجتماعي كما أرجع أصل الفساد السياسي<sup>(33)</sup> إلى سبب واحد وهو ضعف الدين الإسلامي وفي هذا الموقف دليل على أنّ له مقياساً ثابتاً ينظر به إلى مختلف أوضاع العصر .

هذه أبرز مواقف التوحيدي من الأحوال الاجتماعية في عصره تبين وقوفه إلى جانب العامة في طموحاتها لتحسين أوضاعها المادية ، ومناصرته للجنس العربي على بقية الأجناس المتعايشة في المجتمع . كما تدلّ على شدّة تربيته بالفساد الأخلاقي الذي شمل الناس خاصتهم وعامتهم . فهل لهذه المواقف أبعاد إصلاحية ؟ .

لا يمكننا الحديث عن مشروع برنامج إصلاحي وضعه أبو حيان في كتاب الامتاع

(31) ج 1 ص 17 .

(32) ج 3 ص 76 .

(33) انظر موقفه هذا في عصر مواقف التوحيدي من الأحوال السياسية من هذا البحث .

والمؤانسة لأنه لم يكن شأنه مع الوزير القيام بهذا الأمر ، وإنما كان مسامراً توجّه له الأسئلة والمواضيع فيتولّى الإجابة عنها ، إلا أنه كان يفصح عن آرائه بأساليب مختلفة وذلك ما يجعلنا نتحدّث عن طموحات للإصلاح .

فمواقف أبي حيّان قد اتسمت في أكثر الأحيان بعدم الرضى بالواقع الاجتماعي الفاسد وذلك ما يعبر ضمناً عن توق إلى وجود وضع اجتماعي صالح من أبرز أسسه .

- ضمان العيش الطيب لكل طبقات المجتمع حتّى لا يكون التباين بين الخاصة والعامة في الترف والفقر فاحشاً مثلما هو حال المجتمع في القرن الرابع للهجرة . ويتجلّى هذا الموقف في تعاطف التوحيدي مع العامة .

- ومن أسسه أيضاً تكافل الناس خاصتهم وعامتهم وتعاونهم على الخير لدفع كلّ الأخطار الدّاخلية والخارجية المهدّدة للمجتمع في أبرز دعائمه الأمنية والأخلاقية .

- وكذلك عودة المجتمع إلى التحلّي بالأخلاق العربية - الإسلامية من كرم وإيثار للغير وأمانة وتأسّ ورحمة وغيرها من النقائب الفاضلة .

إنّ هذه الأسس تعيد للمجتمع الأمن الذي فقده والوحدة التي تفتت بفعل الأهواء والتعصّب ، والأخلاق الفاضلة التي اندثرت وخلفتها أخلاق فاسدة .

لكننا نؤكد أن هذه الأسس ليست سوى تمنيات أفصح عنها المؤلف قدر ما استطاع وليست برنامجاً واضح الخطوط والأهداف .



نستخلص بعد تحليلنا لخصائص الحياة الاجتماعية ومواقف التوحيدي منها أنّ :

- الوضع الاجتماعي في البلاد لم يكن أقلّ توتّراً أو فساداً من الوضع السّياسي ، وذلك أمر طبيعي « للتلازم المتين بين الوضعين ، فلا يمكن للأحوال الاجتماعية أن تصلح وسط التعقّن السّياسي .

- ونتيجة لذلك فإنّ آراء التوحيدي ومواقفه من الحياة الاجتماعية جاءت مماثلة في جوهرها لآرائه ومواقفه من الحياة السّياسية ، ومعبرة في نفس الوقت عن الضيق الذي عاشه .

- ونستخلص كذلك أن طموحات التوحيدي الإصلاحية بالنسبة إلى الوضعين ، السّياسي والاجتماعي ، مركّزة على نظرة مبدئية واحدة ، عمادها الدّين الإسلامي بكلّ

أخلاقياته السياسية والاجتماعية .

فما هو وضع الحياة الفكرية في القرن الرابع للهجرة وسط هذا الخضم من التوتر السياسي والاجتماعي ؟ .



## البَابُ الثَّالِثُ

### خصائص الحياة الفكرية ومواقف أبي حيان التوحيدي منها

وفي الجملة أحسن الكلام ما رَقَّ لفظه  
ولطُف معناه وتلألأ رونقه وقامت صورته بين  
نظم كأنه نثر ونثر كأنه نظم .

أبو حيان التوحيدي  
الامتاع والمؤانسة



إنَّ الحياة الفكرية في كتاب الامتاع والمؤانسة قد أخذت القسم الأوفر من جلسات أبي حيَّان التوحيدي مع الوزير ابن سعدان حتَّى أنها بمفردها فاقت ما خصَّص للحياة السياسية والحياة الاجتماعية من اهتمام وقد تنوّعت الأحاديث تنوّعاً كبيراً « وتطرّقت إلى شتّى المواضيع . ثمَّ إنَّ المشاركين في الحياة الفكرية ، كانوا من أديان كثيرة منهم ابن يعيش الرقّي وأبو الخير وهما من اليهود . وابن زرعة وهو نصرانيّ . إلى جانب المفكرين المسلمين .

والوزير ابن سعدان « كان عنصراً إيجابياً في محادثة التوحيدي بإثارة عدّة قضايا فكرية هامة ، وبتشجيعه لأبي حيَّان ودفعه إلى مزيد من البحث لإثراء المجالس وإضافة إلى ذلك كان الكتاب ثرياً بآراء أبي حيَّان ومواقفه من أبرز القضايا الفكرية التي وقعت إثارته .

ومثلما فعلنا في العنصرين السَّابقين فإننا استقصينا مختلف مظاهر الحياة الفكرية في عصر أبي حيَّان ونسّقنا بينها « فوقفنا على الخصائص التالية :

- تنوّع المشاغل الفكرية .
- والصِّراع بين الأصيل والدخيل .
- وسوء منزلة المفكّر .

ثمَّ نظرنا في مواقف المؤلّف من مختلف هذه الخصائص وحدّدنا بعد ذلك الخطّ الفكري الذي اتّبعه في اتّخاذ تلك المواقف .

لقد تنوّعت المشاغل الفكرية في الإمتاع والمؤانسة وتعدّدت قضاياها ورغم أن هذه القضايا التي صوّرها الكتاب كان منطلقها مجلس الوزير ابن سعدان فإنها تتجاوز ذلك المحيط لتعبّر عن مشاغل العصر ، لأنّ كثيراً من إجابات أبي حيّان عن أسئلة الوزير مستقاة من مجالس علمية وقعت خارج بلاطه وليس أدلّ على ذلك من ثراء الكتاب بآراء أبي سليمان السجستاني وهو لم يغش أبداً مجالس ابن سعدان . وإنّ من أبرز المشاغل التي وصفها التوحيدي القضايا اللغوية ؛ وهي متعلّقة أحياناً بالبحث عن معاني الكلمات الغريبة ككلمة ( المثر ) التي سأل عن معناها ابن سعدان فأجابه التوحيدي أنّ معناها ( الضغائن ) وواحدتها ( مثرة )<sup>(1)</sup> ، وأحياناً أخرى تتعلّق بضبط الفوارق بدقّة بين كلمات تبدو متشابهة المعاني مثل كلمتي ( العتيق والخلق . ) فكان الجواب أنّ لفظة العتيق تدلّ على معنى « الكرم والحسن والعظمة وهذا موجود في قول العرب ( البيت العتيق )<sup>(2)</sup> . كما تدلّ على « قدم من الزّمان مجهول »<sup>(3)</sup> . أما لفظة الخلق فلها معنى ( البلى ) ومعنى آخر يشير إلى كلّ ما أصبحت نهايته قريبة<sup>(4)</sup> .

وكثيراً ما ركّز الاهتمام باللغة على الصيغ الصرفية « كالبحث في وجوه فعيل ومواقفها أو في الفرق بين صيغتي « تَفْعَال و تَفْعَال »<sup>(5)</sup> . ولماذا نقول الجبر لا الإيجاب »<sup>(7)</sup> . وقد أجاب أبو حيّان عن كلّ المشاكل معتمداً على حافظته من ناحية وعلى أقوال أساتذته من ناحية أخرى مثلما فعل في الإجابة عن الفرق بين ( تَفْعَال و تَفْعَال ) عند ذكر رأي أبي سعيد السيرافي قائلاً : « قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام - نصر الله وجهه - : المصادر كلها على تفعّال . بفتح التاء ، وإنما تحيىء تفعّال في الأسماء ، وليس بالكثير . . . »<sup>(8)</sup> .

هذه بعض المواضيع اللغوية المطروحة « على أنّ الكتاب يزخر بالأمثلة الكثيرة والمتنوّعة التي تبيّن منزلة اللغة في الحياة الفكرية آنذاك .

وقد احتلّ الأدب مكانته بين الاهتمامات الفكرية ؛ ومن أبرز مظاهر ذلك الولعُ

(1) ج 1 ص 49 .

(2) و(3) و(4) ج 1 ص 24 .

(5) ج 2 ص 202 .

(6) ج 2 ص 2 .

(7) ج 1 ص 23 .

(8) ج 2 ص 2 .

بالمفاضلة بين الأدباء قدامى ومعاصرين . ومثال ذلك طلب ابن سعدان من التوحيدي أن يحدّثه عن أبي سليمان السجستاني و« عن درجته في العلم والحكمة »<sup>(9)</sup> . وأن يحدّد مكانته من مكانة عدد آخر من الأدباء سبّاهم الوزير<sup>(10)</sup> .

ونُفِيد من إجابات التوحيدي بأخذ صورة عن النقد الأدبي وعن أسسه . فلنتأمل في هذا المثال ولنحلّله . قال أبو حيان متحدّثاً عن ابن الخمار في سياق إجابته عن طلب الوزير الأنف الذكر : « وأما ابن الخمار ففصيح ، بسط الكلام ، مديّد النفس ، طويل العنان ، مرضي النقل ، كثير التدقيق ، لكنه يخلط الدرة بالبحرة ويفسد السمين بالغث » ويرفع الجديّد بالثرث ، ويبيّن جميع ذلك بالزهر والصّلف » ويزيد في الرقم والسوم . . . . »<sup>(11)</sup> .

نلاحظ أنّ المعايير التي اتبعها التوحيدي في نقد ابن الخمار ثلاثة : بلاغية وفكرية وأخلاقية . فقد أظهر أولاً فصاحته وبساطة لغته ثم تحدّث عن حسن ترجمته ودقتها ليبرز أخيراً مفسده الأخلاقية وهي الكذب والمغالات .

ونلاحظ أنّ أبا حيان قد اتّبع تقريباً نفس هذه المقاييس كلّها وصف أديباً أو عالماً . وذلك يدلّ على أنّ النقد الأدبي كان خاضعاً لتلك الأسس .

ومن الاهتمامات الأدبية في كتاب الامتاع والمؤانسة المفاضلة بين النظم والنثر فقد طلب ابن سعدان من التوحيدي أن يحدّث عن « مراتب النظم والنثر ، وإلى أيّ حدّ ينتهيان وعلى أي شكل يتفقان ، وأيّها أجمع للفائدة » وأرجع بالعائدة وأدخل في الصّناعة وأولى بالبراعة<sup>(12)</sup> . وقد أجاب التوحيدي طلب الوزير بما لا يدع مجالاً للشكّ في أنّ قضية المقارنة بين النظم والنثر ليست قضية مجلس ابن سعدان وحده ، وإنّما هي قضية اهتمّ بها عدد هامّ من أدباء ذلك العصر وعلمائه كأبي سليمان السجستاني « وأبي عابد الكرخي صالح بن علي ( وقد نقل عنه التوحيدي رأيه مباشرة ) » وأحمد بن محمد كاتب ركن الدولة « وابن نباتة<sup>(13)</sup> » وغيرهم . وما يؤيّد هذا قول المؤلّف في أول إجابته « وقد

(9) ج 1 ص 31 .

(10) ج 1 ص 32 .

(11) هو أبو الخير الحسن بن سوار ، طبيب وفيلسوف نصراني ، قام بترجمة كتب كثيرة من السريانية إلى العربية .

(12) ح 3 ص 130 .

(13) هو عبد العزيز بن محمد بن نباتة من شعراء سيف الدولة « واتصل كذلك بابن العميد . ( توفي

عام 405 هـ )

قال الناس في هذين الفنّين ضرورياً من القول لم يبعدوا فيها من الوصف الحسن «  
والانصاف المحمود ، والتنافس المقبول » إلا ما خالطه من التعصّب والمحك «<sup>(14)</sup> .

والطريف في إجابة التوحيدي أنّ الناس حول هذه القضية قد انقسموا إلى مفضّل  
للنثر ومفضّل للنظم وموفق بين الموقفين ولكل جماعة الحجج التي تدّعم مواقفها .

فالقائلون بفضل النثر يحتجّون له بأنه هو أصل الكلام والنظم فرع له وليس الفرع  
كالأصل وأنّه لغة الكتب السماوية ومبرراً من التكلّف وقد شبه ابن طرّادة - وكان من  
فصحاء أهل العصر بالعراق - النثر بالحرّة والنظم بالأمة « والأمة قد تكون أحسن وجهاً »  
وأدّمت شئنا ، وأحلى حركات ، إلا أنّها لا توصف بكرم جوهر الحرّة ولا بشرف عرقها  
وعتق نفسها وبفضل حيائها «<sup>(15)</sup> .

أما المنتصرون للنظم فيقولون إنّ فضله يكمن في أنّه صار صناعة برأسها وضعت  
قواعدها « وليس كذلك النثر فتحدّثه كلّ النّاس من الخاصّة والعامة والنساء والصبيان .  
ومن محاسنه أنّه يزيّن النثر بيت شعر مثلاً .

وقد وقف أبو سليمان السجستاني من هذا الخلاف موقفاً توفيقياً ، قال : « . . .  
للنثر فضيلته التي لا تنكر ، وللنظم شرفه الذي لا يمحّد ولا يستر ، لأنّ مناقب النثر في  
مقابلة مناقب النّظم ، ومثالب النظم في مقابلة مثالب النثر « والذي لا بدّ منه فيهما  
السلامة والدقّة وتجنّب العويص . . »<sup>(16)</sup> .

وقد كان للمسائل العلمية حظّها في الحياة الفكرية : من ذلك الحديث عن الحيوان  
وعن خصائصه في ليلة كاملة . هي الليلة العاشرة ، وقد اهتمّ التوحيدي في حديثه عن  
الحيوانات بأعمارها وتناسلها وأمراضها وهي معلومات جمعها من قراءاته ومن مسموعاته .

وفي رواية التوحيدي نجد عدّة أوهام « بدت له علمية » فذكرها وكأنّها حقائق  
ثابتة « مثل قوله : « الغنم إذا هاجت المسنة منها أولاً فالسنة ذات خصب ، وإن هاجت  
الفتيّة أولاً فالسنة رديئة على الغنم »<sup>(17)</sup> . وقوله أيضاً : « في البحر حوت يقال له :  
البوس ، يتولّد من الصّاعقة إذا كانت في البحر ، وإن وُضع ذلك الحوت بين اثنين فأكلا

(14) ج 2 ص 131 .

(15) ج 2 ص 134 .

(16) ج 2 ص 139 .

(17) ج 1 ص 163 .

منه تحاباً ولا يحقد أحد على أصحابه ويتآخيان أحسن الاخاء» (18) .

ومن طريف المواضيع المطروحة « الكيمياء » ودورها في تحويل المعادن « فنجد الآراء في هذا الموضوع متباينة فيحيى بن عدي (19) يزعم أنه يحول المعادن إلى فضة « فكان في أصبعه خاتم من فضة يزعم أن فضته عملت بين يديه » (20) . وأبو سليمان السجستاني يقول أيضاً بإمكانية فعل ذلك . ومسكويه (21) « يزعم أن الأمر صحيح » (22) .

وقد كذب أبو زيد البلخي (23) هذا القول من أساسه ، « فذكر أن الأمر محال ولا أصل له » وأن حكمة الله تعالى لا توجب صحة هذا الأمر « وأن صحته مفسدة للعقل ( والله لا يحب الفساد ) » (24) .

نستنتج إذن أن النظرة العلمية ، من خلال الامتناع والمؤانسة تبدو غير صافية ، وهي نظرة مخلوطة بأوهام كبيرة في أذهان العلماء ، وكأن خوض العلماء ، والأدباء في مواضيع غير علمية مثل الأدب والبلاغة وغيرها أدق نظراً وأشمل غوصاً .

ومن أهم الشواغل العلمية التي أبرزها كتاب الامتناع والمؤانسة المواضيع الفلسفية . فقد تعددت الأحاديث في الفلسفة وتنوعت فمنا الحديث في النفس والحديث في حرية الإنسان ( الجبر والقدر والإرادة والاختيار ) والحديث في الأخلاق وغيرها من المواضيع .

وقد احتلت النفس مقاماً ممتازاً في أسفار « الامتناع والمؤانسة » . ففي الليلة الرابعة

---

(18) ج 1 ص 174 - 175 .

(19) هو أبو زكريا يحيى بن عدي ، أستاذ أبي حيان « وهو فيلسوف نصراني قام بترجمة كتب أرسطو ولخص مؤلفات الفارابي توفي عام 364 هـ .

(20) ج 2 ص 38 .

(21) هو أبو علي أحمد بن محمد مسكويه ، كان قياً على خزائن كتب ابن العميد ثم خزائن كتب عضد الدولة . ألف كتاب « تهذيب الأخلاق » . توفي سنة 421 هـ .

(22) ج 2 ص 39 .

(23) هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي . كان يلقب « بجاحظ خراسان » . أعجب به الشوحدي فقال فيه « ولا يظن أنه يوجد له نظير في مستأنف الدهر » . توفي سنة 322 هـ .

(24) ج 2 ص 39

والعشرين سأل الوزير أبا حيّان « هل تعرف العرب الفرق بين الرّوح والنفس في كلامها »<sup>(25)</sup> . فبيّن له التوحيدى خطأ الاستعمال الذى يخلط النفس بالرّوح والرّوح بالنفس . ثم حدّد له الفرق بينهما بالاعتماد على رأي الحكماء فقال : « ... الرّوح جسم لطيف منبث في الجسد على خاص ماله فيه » فأما النفس الناطقة فإنها جوهر إلهى وليست في الجسد ( على خاص ماله فيه ) ولكنها مدبّرة للجسد »<sup>(26)</sup> .

ووقع الخوض في معدن النفس وفي خصائصها وعلاقتها بالجسد والرأى الشائع كما جاء في الكتاب أنها جوهر خالد لا تموت . ليست بهيولى أي لا جسم لها وهي التي تسير الجسد . ومن صفاتها أيضاً أنها تقبل الأضداد من غير تغير فهي « تقبل العلم والجهل والبرّ والفجور والشجاعة والجبن والعفة وضدها ، وهذه أشياء أضداد ، من غير أن تتغير في ذاتها »<sup>(27)</sup> .

فالنظرة المسيطرة آنذاك هي أن النفس أفضل من الجسم ولهذا كان مقرّها « معدن الكرامة وجنة الخلد » فلا حاجة بها إلى علم العالم السفلى الذي لا ثبات له ولا صورة »<sup>(28)</sup> . ويبدو جلياً من خلال هذه النظرة التأثير بالنظرة الأفلاطونية في نظرتها إلى الوجود . فقد تحدّث أفلاطون عن عالين متباينين : العالم السفلى وهو عالم الأجساد والفساد . والعالم العلوى وهو عالم الأرواح والخلود .

ومن المواضيع الفلسفية المطروحة في الكتاب قضايا كثيرة متعلّقة بحريّة الإنسان وبقدرته . مثل قضايا الجبر والقدر أو الإرادة والاختيار أو القضاء والقدر . وقد تولى أبو حيّان الإجابة عن هذه القضايا مكتفياً في أغلب الأحيان بعرض آراء متعدّدة مبيناً أن تحديد موقف يقيني من المسألة صعب . من ذلك ما أجاب به عن ( الجبر والقدر ) فبيّن أن « التأمل في معدن الإلهيات يجعل الإنسان يقرّ بالجبر والتأمل في أفعال البشر يجعله ينسبها إليهم »<sup>(29)</sup> . واكتفى التوحيدى بالتعليق على هذين الموقفين قائلاً : « والملاحظان صحيحان واللاحظان مُصيبان لكن الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف ، لأنّه ليس لكلّ أحد الوصول إلى هذه الغاية ، ولا لكلّ إنسان اطلاع إلى هذه النهاية »<sup>(30)</sup> .



General Organization of the Alexandria Library (G.O.A.L.)

*Bibliotheca Alexandrina*

(25) ج 2 ص 113 .

(26) ج 1 ص 113 .

(27) ج 1 ص 200 و 201 .

(28) ج 3 ص 112 .

(29) و (30) ج 1 ص 223 .



وقد كان للحديث عن الأخلاق في إطار فلسفي ، حظه في كتاب الامتاع والمؤانسة . فتحدث التوحيدي عن أخلاق الإنسان المحمودة والمذمومة وعن صلاتها بالنفس الناطقة والنفس الغضبية والنفس الشهوانية<sup>(31)</sup> . فعن النفسين الأخيرتين تصدر الأفعال المحمودة والأفعال المذمومة . أما النفس الناطقة فإنها تسوس النفسين الأخريين لتحملهما على فعل الخير « فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم » فيعود السّفه جلياً أو تحالماً « والحسد غبطة أو تغابطاً . . . والغّي رشداً أو تراشداً<sup>(32)</sup> . وهي تسوسهما تارة بالعبظة واللفظ وتارة بالزجر والعنف<sup>(33)</sup> .

وأمام تشعب المعارف الفلسفية سعى ابن يعيش الرقي إلى تذليل طرق معرفتها فقال : « إنّ هناك طريقاً في إدراك الفلسفة مذلّة مسلوكة مختصرة فسيحة ، ليس على سالكها كد ولا شقّ في بلوغ ما يريد من الحكمة ونيل ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز في العاقبة<sup>(34)</sup> . وإنّ أيسر السبل إلى ذلك هو الاقتصار من كلّ العلوم على أربعة أشياء هي « معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإله تعالى »<sup>(35)</sup> .

بعد استعراضنا لمظاهر عديدة من المشاغل العلمية نستنتج مدى التطور العلمي الذي عرفه المجتمع في القرن الرابع للهجرة وذلك بأثر ثقافات أخرى عرفها العلماء المسلمون لعل أهمها الثقافة اليونانية . فهل اطمأن هؤلاء العلماء إلى الثقافة الجديدة كلّ الاطمئنان ؟

إنّ من المظاهر الهامة التي ميزت الحياة الفكرية من خلال كتاب الامتاع والمؤانسة ، ذلك الصّراع الفكري بين الأصيل والدّخيل « ونعني بالأصيل كلّ ما أنشأه الفكر العربي الإسلامي بمحض اجتهاده ، إلى جانب الشريعة الإسلامية ، أما الدّخيل فهو كلّ ما نشأ في الثقافة الإسلامية بأثر ثقافات أخرى غير إسلامية .

وانتخذ الجدل الفكري في هذا الصّراع طابعاً حاداً وعنيفاً أحياناً .

ومن أمثلة ذلك الصّراع ، الخصومة الكلامية الحادة بين أبي حيان التوحيدي وابن عبيد الكاتب في بيت ابن سعدان حول البحث في أيهما أنفع كتابة البلاغة والإنشاء أو كتابة الحساب .

(31) ج 1 ص 147 .

(32) و(33) ج 1 ص 148 .

(34) ج 1 ص 104 .

(35) ج 1 ص 106 .

فقد انتصر ابن عبيد لكتابة الحساب وبيّن أنها أنفع من كتابة البلاغة والإنشاء لأنها جَدُّ والأخرى هزل ولأنها « حاضرة الجدوى ، سريعة المنفعة »<sup>(36)</sup>. والناس في رأيه يفضّلون الحساب على سائر العلوم لذا ترى أهل الحزم منهم « يحثّون أولادهم ومن لهم به عناية على تعلّم الحساب »<sup>(37)</sup>.

وقد اعتبر ابن عبيد أنّ كتاب البلاغة والإنشاء يحتقرهم الخلفاء والوزراء في مجالسهم فيقولون : « اللهمّ إنّنا نعوذ بك من رقاعة المنشئين وحماقة المعلمين » وركاكة النحويين»<sup>(38)</sup>. وقد جادلّه أبو حيان بشدّة كبيرة فدافع دفاعاً حادّاً عن كتابة الإنشاء والبلاغة فبيّن فضائلها من ذلك مثلاً أنّ الرجل المكلف بالجباية محتاج إلى البلاغة والإنشاء ليعرف كيف يخاطب الناس وقد جرت العادة أن لا يتصدّى لكتابة الحساب إلّا الرجل الذي جمع أصول الفقه وفروعه وآيات من القرآن وأخبار كثيرة مع الأمثال والأشعار البليغة .<sup>(39)</sup>

والبلاغة والإنشاء يحتاج إليهما السلطان قبل احتياجه للحساب لأنّه في سياسته « يأمر وينهي ويلطف ويخاطب ويحتج وينصف ويوعد ويعد ويضمن ويخفي ويعلق الأمل ويؤكد الرجاء ويحسم المادة الضارة ويذيق الرّعية حلالة العدل ويجنبهم مرارة الجور»<sup>(40)</sup>. وهو محتاج في كلّ هذه الأمور إلى بلاغة التعبير والإنشاء . وهو بعدما تستقيم سياسته يحتاج إلى الجباية فيعتمد على كتابة الحساب وأصحابها . ويمضي المؤلف في الردّ على ابن عبيد حجّة بحجّة فيقول ردّاً على الادّعاء القائل إنّ الإنشاء هزل والحساب جدّ « البلاغة هي الجدّ » وهي الجامعة لثمرات العقل ، لأنها تحقّق الحقّ وتبطل الباطل »<sup>(41)</sup>.

فأين الصّراع بين الأصيل والدّخيل في هذه المجادلة ؟ .

إنّ العنصر الأصيل من غير شكّ هو البلاغة والإنشاء لآتصالهما بالفصاحة وهي من أبرز مميّزات اللغة العربية والأدب العربي ؛ ولا نقصد بالعربية الوجه الجنسي لها ( انتهاءها للجنس العربي ) ولأنّنا نعني الوجه الحضاري للأمة الإسلامية « فمعجزة القرآن في بيانه

(36) ج 1 ص 96 .

(37) ج 1 ص 97 .

(38) ج 1 ص 96 .

(39) ج 1 ص 100 .

(40) ح 1 ص 100 .

(41) ج 1 ص 101 .

وفصاحته . وقد أتقنت الأجناس المسلمة من غير العرب هذه اللغة وفصحت فيها مثل ابن المقفع ( المتوفى حوالي سنة 143 هـ ) أو بديع الزمان الهمداني ( توفي عام 398 هـ ) أو ابن العميد ( المتوفى عام 360 هـ ) أو الصاحب بن عباد وغيرهم .

والعنصر الدخيل هو علم الحساب ؛ فقد علا شأنه بين العلوم الإسلامية بعدما ترجم العرب كتب اليونان واستوعبوها . وأبو الوفاء المهندس ( المتوفى سنة 376 هـ ) صاحب أبي حيّان . من أبرز رياضي القرن الرابع للهجرة وله في هذا العلم مؤلفات عديدة من أهمها كتاب ( في ما يحتاج إليه الكتاب والعلماء من علم الحساب ) .

إنّ ردّ أبي حيّان التوحيدي على ابن عبيد ، ليس تهجيناً لعلم الحساب في ذاته « وإنما هو رفض لأن يبتلع الدخيل الأصيل لذا نراه يخاطب ابن عبيد مبيّناً له أنّ الصناعتين تتكاملان : « ولو أنصفتُ لعلمتُ أنّ الصنّاعة جامعة بين الأمرين » أعني الحساب والבלاغة ، والإنسان لا يأتي إلى صنّاعة فيشقها نصفين ويشرف أحد النصفين على الآخر » (42) .

ونجد في كتاب الامتاع والمؤانسة صورة أخرى لهذا الصّراع بين الأصيل والدخيل عبّرت عنه المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ( المتوفى عام 368 هـ ) ومتّى بن يونس القنّائي « وهي متعلّقة بالمفاضلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني . ونظّم هذه المناظرة سنة 326 هـ الوزير ابن الفرات ( المتوفى عام 322 هـ ) .

فقد دافع أبو سعيد عن النحو بينما دافع متّى عن المنطق . والتأمل في هذه المناظرة يلحظ دون شك ما بلغه الجدل بين العلماء من نظام وتركيز رغم الحماس في الانتصار لهذا الرأي أو لذاك . وافتتح أبو سعيد المناظرة بسؤال متّى عن معنى المنطق فأجابه قائلاً : « أعني به آلة من آلات الكلام يُعرف بها صحيح الكلام . من سقيمه « وفسد المعنى من صالحه ، كالميزان فإنّي أعرف به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح » (43) .

فرّد عليه أبو سعيد قائلاً : « أخطأت ، لأنّ صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إن كنّا نتكلّم بالعربية وفسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إن كنّا نبحث بالعقل » (44) .

وتواصل الجدل على هذه الوتيرة حجّة بحجّة ورأياً برأياً . ونلاحظ أنّ النقّاش

(42) ج 1 ص 100 .

(43) و(44) ج 1 ص 108 .

اتخذ أبعاداً عميقة وصار دفاعاً عن مقومات حضارية ، فمتى يؤكد أن الترجمة حفظت العلوم اليونانية وأدت معانيها وأخلصت الحقائق<sup>(45)</sup> واليونان « أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه . . . وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع ، ولم نجد هذا لغيرهم »<sup>(46)</sup> .

أما أبو سعيد ، فيقول له إن الترجمة ليس من طبيعتها التعبير بكل دقة عن المعاني ثم يسأله : « فكأنك تقول : لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه »<sup>(47)</sup> .

وهذه المجادلة بين متى وأبي سعيد ، ليست خصومة فكرية ثنائية . فالأول يمثل جماعة وذلك بدليل قول السيرافي « وهذا باب . أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة »<sup>(48)</sup> . والثاني يمثل جماعة أيضاً بدليل قول متى « يكفيني من لغتكم »<sup>(49)</sup> .

واستناداً إلى رواية التوحيدي للمناظرة - نقلاً عن علي بن عيسى الرّماني ( المتوفى عام 384 هـ ) نرى أن أبا سعيد قد أعجز مناظره وذلك بأن سألته عدّة أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها بمقاييس المنطق ومن تلك الأسئلة قوله : « حدثني عن الواو ما حكمه ؟ فإني أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئاً وأنت تجهل حرفاً واحداً في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان . ومن جهل حرفاً أمكن أن يجهل حروفاً »<sup>(50)</sup> ولكن متى عجز عن الإجابة و« بلح وجنع وغصّ بريقه »<sup>(51)</sup> .

والطريف أن متى عندما عجز عن الإجابة « طلب الجواب من أبي سعيد ، فما كان منه إلا أن قال له : « إذا حضرت الحلقة استفدت » ليس هذا مكان التدريس . هو مجلس إزالة التلبيس مع من عاداته التمويه والتشبيه »<sup>(52)</sup> . إلا أن هذا العنف لم يخرج بالمناظرة عن حدود الجدل الفكري المركز .

---

(45) ج 1 ص 111 .

(46) و(47) ج 1 ص 112 .

(48) ج 1 ص 115 .

(49) ج 1 ص 115 .

(50) ج 1 ص 116 - 117 .

(51) ج 1 ص 119 .

(52) ج 1 ص 116 .

فلا شكّ إذن أنّ هذه المناظرة الهامة التي انفرد بذكرها كتاب الامتاع والمؤانسة أوضح دلالة على الصّراع بين الأصيل والدّخيل بين المجادلة حول المفاضلة بين الحساب والبلاغة والإنشاء .

فدفاع أبي سعيد عن النحو العربي ، يعتبر في الحقيقة دفاعاً عن مقوم أساسي من مقومات الحضارة العربية الإسلامية أمام الزحف الجارف للمنطق اليوناني الذي ولع به كثير من العلماء ، نخصّ بالذكر منهم المتكلّمين . والمجتمع آنذاك ليس شاذّاً في معرفته مثل هذا الصّراع . إذ أن كلّ جديد يظهر في أيّ عصر لا بدّ أن يجد أناساً يجذبونه وآخرين يرفضونه .

ونجد في « الامتاع والمؤانسة » أقوى الأمثلة وأعمقها دلالة على هذا الصّراع بين الأصيل والدّخيل ، وهو يتمثّل في مجادلة كبيرة حول الفلسفة اليونانية والشرعية الإسلامية وكان ذلك عند الحديث عن مذهب إخوان الصفاء في التوفيق بين الفلسفة والشرعية .

قال إخوان الصفاء في هذا المعنى : « الشريعة قد دُنست بالجهالات » واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلّا بالفلسفة وذلك لأنّها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية »<sup>(53)</sup> . وأضافوا « أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشرعية العربية فقد حصل الكمال »<sup>(54)</sup> .

إنّ السعي إلى التوفيق بين الفلسفة والشرعية يدلّ منطقياً أنّها على صعيد الواقع متباينتان ، وقد أراد إخوان الصّفاء إنهاء هذا الصّراع بالتقريب بينهما . وعمّق الحكماء هذا التباين ، فكلماً أرادوا التنكيل بفيلسوف اتهموه بالزندقة وتولّى الردّ على مذهب إخوان الصّفاء ، أبو سليمان السجستاني ، فهو يعتبر أنّ الشريعة كاملة وهي لذلك ليست بحاجة إلى الفلسفة لتكمّلها ؛ والفرق الإسلامية التي ظهرت على اختلاف مذاهبها ومقالاتها ما فزعت منها فرقة إلى الفلسفة ، وكذلك شأن الفقهاء فقد اختلفوا في أمور الدّين ولم يلجأوا إليها<sup>(55)</sup> .

وقد فضل أبو سليمان النبي على الفيلسوف وذلك في قوله : « وبالجملة ، النبيّ فوق الفيلسوف ، والفيلسوف دون النبيّ » وعلى الفيلسوف أن يتبع النبيّ وليس على النبيّ أن يتبع الفيلسوف لأنّ النبيّ مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه »<sup>(56)</sup> .

(53) و(54) ج 2 ص 5 .

(55) ج 2 ص 9 .

(56) ج 2 ص 10 .

وإذا كان أبو سليمان ينتصر للشرعية فإنَّ المقدسي نجده يبيِّن فضل الفلسفة على الشرعية وذلك في قوله : « الشرعية طبُّ المرضى ، والفلسفة طبُّ الأصحاء . . . فبين مدبِّر المريض ومدبِّر الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف ، لأنَّ غاية مدبِّر المريض أن يتنقل به إلى الصِّحَّة ، هذا إذا كان الدَّواء ناجعاً ، والطَّبُّ قابلاً والطبيب ناصحاً » وغاية مدبِّر الصحيح أن يحفَظ الصِّحَّة ، وإذا حفظ الصِّحَّة فقد أفاده كسب الفضائل » (57) .

إنَّ موقف المقدسي يعبر عن انتصاره لهذا العنصر الجديد في الثقافة الإسلامية .  
بينما موقف أبي سليمان هو دفاع عن الشرعية باعتبارها عنصراً أصيلاً .

فنرى إذن أنَّ هذا الصِّراع الفكري يعبر :

أ - عن الحرِّية الفكرية التي سادت داخل المجتمع ، وقد كان بعض رجال السياسة وراء هذه الحرِّية . أليس ابن الفرات هو الذي نظَّم المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتيَّ ابن يونس القنَّائي ؟ .

ب - وعن تطوُّر أساليب المجادلة الفكرية ، فقد صارت هذه المجادلة منظمة في مجالس ، ومنظمة في طريقة الكلام والردِّ على الخصم .

ج - وعن الحركة الفكرية الكبيرة التي وُجدت في المجتمع آنذاك .

د - وعلى أنَّ الصِّراع الفكري كان يدور حول مقوِّمات جوهرية للمسلمين : اللغة والدين والأدب ( باعتباره شاملاً لمشكلات الفكر والتعبير الوجداني ) .

ولمَّا جانب الاهتمامين السابقين ونعني تنوُّع المشاغل الفكرية والصِّراع بين الأصل والدَّخيل . يجد الناظر في الإمتاع والمؤانسة اهتماماً بمنزلة المفكر في المجتمع . والغالب على هذه المنزلة كما صوَّرها الكتاب سوء أحوال المفكرين عامَّة .

وننبِّه إلى أنَّ تركيز التوحيد على سوء منزلة المفكر لا يعني أنَّه لم يوجد مفكِّرون محظوظون . لكنَّ عين المؤلِّف لم ترصد إلَّا ما كان يعانيه أهل العِلْم والمعرفة من غبن وخصاصة .

فلقد صوَّر التوحيدي طويلاً غبن المفكِّرين معنوياً ومادياً ؛ والغبن المعنوي مصدره الأساسي رجال السِّياسة ، فقد أساءوا إلى كثير من العلماء والأدباء واستخدموهم كوسائل

---

(57) ج 1 ص 11 .

الخدمة مصالحهم . من ذلك أن ابن سعدان حاول أن يستعمل أبا حيان عيناً على رجل يدعى ابن موسى « لكن التوحيدي رفض الخدمة متعللاً بأن ذلك غير لائق بحاله فقال مخاطباً الوزير : . . قيل : ( أي للتوحيدي ) ينبغي أن تكون عيناً عليه » وأنا لو قرّرت لك الحديث لما رأيته لائقاً بحالي »<sup>(58)</sup> . وقد أبدى المؤلف ذات التحرج لما طلب منه الوزير أن ينقل له حديث « مجلس رسل سجستان » فقال : « سمعت أشياء ولست أحب أن أسم نفسي بنقل الحديث ، وإعادة الأحوال فأكون غامزاً وساعياً ومفسداً »<sup>(59)</sup> .

ولكن إذا كانت لأبي حيان الجرأة أحياناً على رفض الجوسسة ، فإنه قد خدم مصالح الوزير سياسياً ، فكان يدعو له في محافل الناس ويذيع بينهم فضائله<sup>(60)</sup> . وخدم أبو سليمان السجستاني كذلك الوزير خدمة كبيرة ، حتى « سكر الأذان وملأ الدنيا بالدعاء الصالح . . . والثناء الطيب »<sup>(61)</sup> . وقد ألف رسالة طويلة في مدح ابن سعدان وغايته من هذه الخدمة الحصول على بعض المال . كذلك نجد مسكويه ( المتوفى عام 421 هـ ) مشغولاً بـ « إنفاق زمانه وكّد بدنه وقلبه في خدمة السلطان »<sup>(62)</sup> .

ولم يقتصر رجال السياسة على استخدام المفكرين في مصالحهم السياسية « بل كانوا كثيراً ما يهينونهم ويعنفونهم كالصاحب بن عباد الذي كان يجمع الشعراء في العيد لمدحه ، وكان يصنع أبياتاً يمدح فيها نفسه ويعطيها إلى أبي عيسى بن النجم ليمدحه بها بين الشعراء وكأنها من عنده » وبعدها يلقيها مخاطب الصاحب وقد سمع مدحه لنفسه « زه يا أبا عيسى والله » قد صفا ذهنك وزادت قريحتك وتنقحت قوافيك . . . مجالسنا تخرج الناس وتهب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة »<sup>(63)</sup> .

ثم يصرف له جائزة سنّية فيغيب ذلك الشعراء الحاضرين لأنهم يعرفون أن الرجل ليس شاعراً ولا يستطيع نظم بيت واحد .

ومن أمثلة إهانة العلماء معنوياً ما فعله الأمير بختيار عز الدولة ( المتوفى عام 366 هـ ) بهم وقد ذهبوا إليه يستحثونه على تدارك ما جرى بالبلاد إثر غزو الروم

(58) ح 1 ص 52 .

(59) ج 1 ص 42 .

(60) ج 2 ص 26 .

(61) ج 1 ص 29 .

(62) ج 1 ص 36 .

(63) ج 1 ص 56 .

للبلاذ سنة 362 هـ . فأغلظ لهم القول وأخذ في شتم أبي بكر الرّازي بقوله : « أبطّن هذا الشيخ أبو بكر الرّازي أنني غير عالم بنفاقه ، ولا عارف بما يشتمل عليه من خيره وشرّه . » يلقيان بوجه صلب ولسان هذاريري من نفسه أنه الحسن البصريّ يعظ الحجاج بن يوسف . . . »<sup>(64)</sup> . وحدثنا أبو حيان في ثنايا كتابه عن حسد ابن العميد للعلماء « فقال عنه « وكان أحسد الناس لمن خطّ بالقلم أو بلغ في اللسان أو فلع في المناظرة » أو فكّه بالنّادرة أو أغرب في جواب أو اتسع في خطاب وقد لقي منه الناس الدّواهي هذه الأخلاق الخبيثة »<sup>(65)</sup> . ومن الناس الذين حسدهم ابن العميد وأساء إليهم ، الرّجل المعروف بأبي طالب الجراحي فقد أذاقه الأمرين ثمّ أطرده من مجلسه<sup>(66)</sup> .

ولم تكن خدمة رجال السياسة ، وتحمل إهانتهم لتدفع غوائل الخصاصة والفقر عن المفكرين ، ويصوّر لنا التوحيد في كتابه أحوال العلماء المادية وما يعانونه من فقر مدقع . فهذا أبو سليمان السجستاني أبرز علماء الوقت ومفكره « رغم خدمته للحكّام ومنهم الوزير ابن سعدان » حاجته ماسّة إلى رغيغ ، وحوله وقوّته قد عجزا عن أجرة مسكنه « وعن وجبة غذائه وعشائه »<sup>(67)</sup> . وهذا وهب ابن يعيش اليهودي الذي تقرب من ابن سعدان وحاول أن يغشى مجلسه « شديد الفقر ظاهر الخصاصة ، لاصق بالدقعاء »<sup>(68)</sup> .

وإنّ حالة التوحيد المادية هي أوضح مثال صوره الامتاع والمؤانسة ، فهو بعدها خدم ابن سعدان وناصره سياسياً فدعا له في الجوامع والمجامع ومدحه بمدائح كثيرة وأمل العطاء الحسن ، وجد نفسه وقد خرج من بلاطه فقيراً معدماً يتوسّل ثانية إلى أبي الوفاء المهندس حتّى ينظر في أمره ويساعده على حاله . ونلمس في توسله تذلاً كبيراً ونحجلاً . فهو مستعدّ لأن يبيع نفسه ولسانه لأجل الخروج من حالة الخصاصة . لنستمع إليه يقول : « خلّصني أيّها الرّجل من التكفّف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضرّ ، اشترني بالإحسان ، اعتبدي بالشكر ، استعمل لساني بفنون المدح . اكفي

(64) ج 1 ص 158 .

(65) ج 1 ص 66 - 67 .

(66) ج 1 ص 68 .

(67) ج 1 ص 31 .

(68) ج 1 ص 105 .



مؤونة الغداء والعشاء» (69) .

إن هذه المنزلة السيئة معنوياً ومادياً كان لها تأثير واضح على أفكار العلماء والأدباء فأبو سليمان لشدة ما أصابه من الفقر رغم علمه الواسع صار يعتقد أن العلم والمال لا يجتمعان لشخص واحد فهما ضربتان « قلما يجتمعان ويصطلحان » (70) .

وبين التوحيدي أثر الخصاصة في العلم والعلماء ، فقد زهدوا في الكتابة والتأليف وقدموا عليهما طلب القوت . فبدلوا في سبيله : « بيع الدين وأخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه وكذّ البدن وتحجّر الأسى ومقاساة الحرقة » (71) .

وأعمق أثر لهذه المنزلة السيئة هو عدم اطمئنان المفكرين إلى المستقبل . فأقبلوا على تدبير الأموال توقياً للمستقبل « مثل ابن زرعة ( المتوفى عام 398 هـ ) الذي كان مهتماً بالتجارة حريصاً على الجمع شديد المنع » (72) وابن السمع ( المتوفى عام 418 هـ ) الذي كان « مأسور العقل يأخذ الدائق والقبراط والحبة والطسوج والفلس بالصرف والوزن والتطفيف » (73) . وغيرهما يمين ذكرهم التوحيدي في كتابه .

ومن الأسباب التي جعلت منزلة المفكرين تسوء في المجتمع . ما كان بينهم من نحاسد للاستئثار بمقام عند الوزراء « وتحذّث أبو حيان في هذا الموضوع قائلاً : « وقلّ من يجهد جهده في التقرب إلى رئيس أو وزير ، إلا جدّ في إبعاده عن مرامه كل صغير وكبير » (74) .



هذه إذن أهم سمات الحياة الفكرية كما تجلّت في الإمتاع والمؤانسة فما كانت مواقف أبي حيان من كلّ تلك السمات .

إن مواقف أبي حيان التوحيدي من مختلف القضايا الفكرية واضحة وصریحة ولا غرابة في ذلك فلئن تفاعل المؤلف مع الأحوال السياسية والاجتماعية فمن الطبيعي أن يتفاعل مع المشاكل الفكرية ، وهو الأديب الذي لعب دوراً كبيراً في مجتمعه .

(69) ج 3 ص 226 .

(70) ج 2 ص 49 .

(71) ج 2 ص 143 .

(72) ج 1 ص 33 .

(73) ج 1 ص 34 .

(74) ج 2 ص 1 .

وقد اهتمت هذه المواقف ببعض علوم العصر وبالصراع الفكري داخل المجتمع وبالفرق الدينية كما اهتمت أيضاً ببعض القضايا الماورائية وبمنزلة المفكر في المجتمع .

فقد سأل ابن سعدان ، أبا حيان مرة عن رأيه به في النجوم وأحكامها فأجابته أن هذا العلم صعب وغامض . وقد فُقد العلماء العارفون به لذا وجب عدم الاهتمام به وصرف الوقت في ما هو أفيد منه لأنه قد صار لا يعتمد على أسس علمية بينة وإنما صار يستند إلى الحدس والظن وعلى بعض تجارب القدامى : « فالتقص قد دخله والخلل قد شمله وليس يجب أن يوهب له زمان عزيز فوراءه ما هو أهم منه وأجدر وأرشد وأهدى »<sup>(75)</sup> .

وأعطى التوحيدي رأيه في الكيمياء وفي توهم بعض العلماء أنهم قادرون على تغيير المعادن إلى ذهب أو فضة . ولم يظهر موقفه تامّ الوضوح ، لكنه ميّال إلى تكذيب الادّعاء ومن أدلة ذلك أنه استعمل فعل (زعم) عند عرض آراء القائلين بأن الكيمياء تُغيّر المعادن إلى ذهب وفضة : « أما يحيى بن عدي . . فكان في إصابه خاتم من فضة يزعم أن فضته عملت بين يديه »<sup>(76)</sup> . وأضاف قوله : « أما مسكويه . . فيزعم أن الأمر حق »<sup>(77)</sup> .

ومما يدعم شك التوحيدي مقارنته بين فعل الطبيعة وفعل الصناعة ، فبين أن الطبيعة فوق الصناعة لأنها إلهية والأخرى بشرية ولما كانت المعادن من صنع الطبيعة فمن المستحيل على الإنسان أن يضاهيها في أفعالها وأقصى ما يمكن أن ينجز هو صنع شيء « كأنه ذهب أو فضة وليس هو في الحقيقة ذهب ولا فضة »<sup>(78)</sup> .

لكن موقفه لا يبقى ثابتاً كلّ الثبات عند قوله : « والخوض في هذا الطرف قديم ، وفصله في الحق شاق ، والتنازع فيه قائم ، والظن يعمل عمله واليقين غير مظفور به »<sup>(79)</sup> .

وكذلك تحدّث التوحيدي عن علم الحساب وبين موقفه منه ، عندما حاور ابن عبيد الكاتب حول أيهما أجدى علم الحساب أم علم البلاغة والإنشاء ؟ وهولثن بين

(75) ج 1 ص 40 .

(76) ج 2 ص 38 .

(77) ج 2 ص 39 .

(78) ج 2 ص 39-40 .

(79) ج 2 ص 40 .

فضل البلاغة على الحساب فإنّ ذلك لا يعني أنّ الحساب علم حقير ، بل بالعكس فهو علم هامّ يقوم مدارُّ الملك عليه وهو علم « الحاجة إليه عامّة للكبار والصّغار »<sup>(80)</sup>. لكن فضائله تأتي بعد البلاغة طبعاً .

وكان موقف التوحيدى موضوعياً أكثر من موقف ابن عبيد ، إذ أنّه بين أنّ الحاجة إلى الصّناعتين ضرورية ، وهما علمان متكاملان .

إنّ هذه المواقف تدلّ على أنّ أبا حيّان لم يكن واسع الاطلاع على ما نسمّيه اليوم بالعلوم الصحيحة . فعلم النجوم مثلاً قد شهد ازدهاراً كبيراً في القرن الرابع وكذلك الكيمياء .

ومن أبرز العلوم التي وقف منها أبو حيّان موقفاً شديداً ( علم الكلام ) الذي انتشر في ذلك العصر وذاع صيته وتعدّدت مدارسه . فقد عارض المؤلّف المتكلمين أعنف معارضة وبين نتائج طريقتهم في البحث والجدل فهي لا تفضي في رأيه إلّا إلى الشكّ والارتياب « لهذا فقد كفر أهل الكلام بقوله : « من طلب الدين بالكلام الحُد »<sup>(81)</sup>. وبين قلة ورّعهم قائلاً : « ولم أر متكلماً في مدّة عمره بكى خشية أو دمعت عينه خوفاً » أو أقلع عن كبيرة رغبة»<sup>(82)</sup> .

وبلغ سخط التوحيدى على المتكلمين حدّاً ، جعله يخرج عن رصانة المفكر فأخذ يدعو عليهم : « جدّ الله عروقه » واستأصل شأفتهم « وأراح العباد والبلاد منهم ، فقد عظمت البلوى بهم وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم . . . وأرجو أن لا أخرج من الدنيا حتّى أرى بنيانهم متضععاً » وساكنه متجعجعا»<sup>(83)</sup> .

وناقش أبو حيّان ابن البقال وهو أحد المتكلمين في قوله بتكافؤ الأدلّة ، أي الأدلّة على الخير والأدلّة على الشرّ ، وظهرت من خلال هذه المناقشة معارضة المؤلّف لهذا القول لأنّه يعتقد « أنّ الباطل لا يقاوم بالحقّ ، والحقّ لا يتشبه بالباطل »<sup>(84)</sup> .

إنّ لرأي التوحيدى في علم الكلام أهمّية كبرى في فهم اتجاهه الفكرى الدّيني فهو بهذا الموقف اعترض على أبرز تيار فكرى في القرن الرابع أقام التفكير على أساس عقلي

(80) ح 1 ص 102 .

(81) و(82) و(83) ج 1 ص 142 .

(84) ج 3 ص 191 .

وفتح باب الاجتهاد واسعاً . وانطلاقاً من هذا الموقف فإننا نعتبر أبا حيان سنياً .

واعترف أبو حيان بذلك من خلال تفضيله لأهل الحديث والأثر على أصحاب الكلام وذلك في قوله « ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصار الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر »<sup>(85)</sup> .

وإن موقفه من الصراع القائم بين الفلاسفة وأنصار الشريعة يتنزل في نفس هذا الخطّ الفكري تقريباً ، فالفلاسفة أهل نظر ، هم أيضاً ، اعتمدوا على العقل كمقياس أساسي في تحليل الأشياء ، واتخذوا من المنطق والقياس أبرز وسيلتين عقليتين ، للاحتجاج بهما على مختلف الآراء والأفكار فقد وقف من إخوان الصفاء في مذهبهم للتوفيق بين الفلسفة والشريعة موقفاً معارضاً مبيناً أنّ الخطأ في رسائلهم قد غلب الصواب ، فقال : « قد رأيت جملة منها وهي مبسوطة من كلّ فنّ تنفأ بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنائيات وتلفيقات وتلزيقات ، وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها »<sup>(86)</sup> . وهو يعتبر أن الفلاسفة الذين يأخذ عنهم زيد بن رفاعه مؤسس الجمعية ، مثل أرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط « رهط الكفر ذكروا في كتبهم حديث الظاهر والباطن »<sup>(87)</sup> .

ونرى التوحيدي في موضع آخر يقول : « وأنا أعوذ بالله من صناعة لا تحقق التوحيد » ولا تدلّ على الواحد ولا تدعو إلى عبادته والاعتراف بواحدنيته والقيام بحقوقه والمصير إلى كنفه<sup>(88)</sup> . لذا فنحن نؤكد أن أبا حيان يرفض كلّ ما لم يوافق الشريعة وذلك هو الخطّ الفكري الديني الذي بنى على أساسه كلّ مواقفه .

وهو يعتبر أنّ معرفة أسرار العالم العلويّ بالحس والعقل أمر مستحيل ، لذا عاب على بعض المفكرين أو العلماء انسياقهم لمغريات الطبيعة فقال : « ولله في طيّ هذا العالم العلوي أسرار وخفايا وغيوب ومكامن لا قوة لأحد من البشر بالحس ولا بالعقل أن يحوم حولها ، ويبلغ عمقها أو يدرك كنهها ، ومن تصرف عرّف ومن عرف سلم »<sup>(89)</sup> .

إن أبا حيان قد عبّر في هذا القول الحسّ والعقل عن إدراك كنه الغيب ، وهو

(85) ج 1 ص 142 .

(86) ج 2 ص 65 .

(87) ج 2 ص 16 .

(88) ج 3 ص 135 .

(89) ج 2 ص 40 .

موقف هامّ يذكّرنا بموقف المتصوّفين من مشكلة المعرفة ويقولهم إنّ الغيب يدرك بالحدس والوجدان . لكن أليس التوحيدي متصوّفاً ؟ فلا غرابة أن يكون له هذا الموقف .

وهناك بعض المشاكل الفكرية لم يتخذ منها المؤلّف موقفاً واضحاً كمشكلة الجبر والقدر التي اكتفى فيها بعرض موقفين متباينين دون أن يحدّد موقفه بوضوح<sup>(90)</sup> .

وقد تحدّث التوحيدي عن البلاغة فكشف لنا ذوقه الأدبي ، فهو في ما يبدو ينفر من التعقيد اللفظي والأسلوبي ويحبّذ التعبير الواضح وذلك في مختلف فنون الأدب : فبلاغة الشعر تكمن في خلوه من الكلمات الغريبة وفي وضوح معانيه . وكذلك بلاغة الخطابة توجد في سهولة العبارة ، أما بلاغة النثر فهي في يسر اللفظ ووضوح المعنى<sup>(91)</sup> . وقد لخص كل هذه المعاني في قوله : « وفي الجملة أحسن الكلام ما رَقَّ لفظه ، ولطف معناه » وتلاً رونقه « وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ونثر كأنه نظم »<sup>(92)</sup> .

إذن تقوم نظرة التوحيدي إلى البلاغة على ضرورة التوفيق بين اللفظ والمعنى مع اللجوء إلى الصنعة التي لا تُفسد الكلام وتعمّيه . وهذا الموقف يجعل التوحيدي في خصوصية أدبية مع أصحاب مدرسة أخرى عرفت ( بمدرسة الصنعة أو البديع ) وهي تهتمّ أساساً بالاعتناء الشديد بتنميق الأسلوب وتزيينه فتعتمد إلى مختلف ضروب المحسنات البلاغية وتنمق بها الأسلوب وأستاذ هذه المدرسة هو بلا شكّ بديع الزمان الهمذاني ( المتوفى عام 398 هـ ) .

وقد بينّ التوحيدي رأيه في سوء منزلة المفكر معنوّياً ومادياً ، فعرض بكلّ رجل سياسة أهان عالماً أو أديباً واعتبر هذا الفعل نقيصة سياسية كبرى .

لقد وصف المؤلّف إساءة الصّاحب بن عبّاد إلى المفكرين وتعصّبه على أهل الحكمة وإهانته للشعراء يوم العيد « احتقاراً لهم واعتداداً بنفسه وبأدبه ؛ وكان في غضون ذلك الوصف يزرى به ويعلمه وأدبه ويصوّره تصويراً ماسخاً في قوله : « وهو في كلّ ذلك يتشاكل ويتحايّل ، ويلوي شدقه ، ويتلع ريقه ويردّ كالآخذ ويأخذ كالمتنع . . . ويتمالك ويتقابل ويتمايل ويحاكي المومسات ويخرج في أصحاب الساجات »<sup>(93)</sup> . فهل

(90) ج 1 ص 224 .

(91) ج 2 ص 141 .

(92) ج 2 ص 145 .

(93) ج 1 ص 59 .

من قذع الذع من هذه الصورة المشوهة لكلّ العالم الخلقية والخلقية للصاحب بن عباد ؟ .

ومثلما أهان الصّاحبُ الأدباء واحتقرهم ، ومن هؤلاء الأدباء التوحيدي طبعاً ، كان ردّ فعل صاحب الامتاع مماثلاً فاحتقره واحتقر أدبه ، ولم يكتف بذلك فدعم موقفه هذا بشهادات كثيرة لنقاد الأدب في عصره منها شهادة رجل يسمّى أحمد بن محمد استعرض فيها كل نقائص الصّاحب الأدبية ومن أهمّها شغفه بالغريب من الكلمات وذهابه مع اللفظ دون المعنى وإلفه الرّسوم الفاسدة وغيرها<sup>(94)</sup> .

وختم التوحيدي موقفه من الصّاحب بالقول : « ولو جرت الأمور على موضوع الرّأي وقضية العقل ، لكان معلماً في مصطبة على شارع أو في داره فإنه يخرج الإنسان بتفقيّه وتشادقه واستحقاره واستكباره . . . وهذه أشكال تعجب الصبيان ولا تنفرهم من المعلمين »<sup>(95)</sup> .

فلاحظ إذاً أنّ ردّ التوحيدي كان عنيفاً على قدر الإساءة التي تعرّض لها هو وغيره من الأدباء ، وفي ذلك الدليل الواضح على رفض المهانة للمفكرين .

ولقائل أن يدعي أن موقف أبي حيّان من الصّاحب ليس غيرة على المفكرين بقدر ما هو ردّ فعل ذاتي ؛ لكننا نقول هذا صحيح بلا شك ، فالدافع الدّائي واضح في موقفه . لكنه ليس هو الدافع الوحيد بدليل موقفه من المهلبى وهو وزير أساء إليه وكان أوّل من اتهم التوحيدي في دينه .

فقد بين حسن اصطناعه للرجال ، إذ قرّب إليه عدداً كبيراً من المفكرين من أهمّهم أبو حامد المرووزي . وأبو سعيد السيرافي وابن درستويه وابن البقال وغيرهم وقد « نوه بهم ونبه على فضلهم وأحوج الناظرين في أمر الملك إليهم وإلى كفايتهم »<sup>(96)</sup> .

وهكذا يتبيّن لنا أنّ أبا حيّان يقدر من الرجال الذين يقدرّون للمفكرين فضلهم ويقدمونهم على غيرهم اعترافاً بمكانتهم العلمية .

وأحدثت الخصاصة المادية التي كان عليها المفكّرون في نفس أبي حيّان شعوراً بالآلم ، فأطال في تصوير فقر أبي سليمان السجستاني كما صوّر فقر وهب بن يعيش

(94) ج 1 ص 64 .

(95) ج 1 ص 70 .

(96) ج 3 ص 213 .

اليهودي . وأورث هذا الشعور إعراضاً عن الأدب وانشغالاً بالبحث عن الرزق<sup>(97)</sup> .

وفسر التوحيدي سوء منزلة المفكر بتردي الأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية في المجتمع فقال : « وكان هذا الباب يُتنافس فيه أَوَّانَ كان للخلافة بهجة » وللنيابة عنها بهاء » وللديانة معتقد وللمروءة عاشق وللخير منتهز وللصدق مؤثر وللأدب شراة وللبيان سوق وللصواب طالب ، وفي العلم راغب<sup>(98)</sup> .

أليس هذا التعليل عجباً من أبي حيَّان ؟ فقد عرف العصر نهضة علمية مشهودة أعطانا كتاب الامتاع والمؤانسة صورة واضحة عنها . إلا أن عين الكاتب صارت سوداء لا ترى في المجتمع إلا الشر والفساد .

نرى إذن بعد تحليل خصائص الحياة الفكرية :

- أن المجتمع شهد حركة فكرية متنوعة وثرية ، كان للعلوم والأدب والفلسفة وغيرها حظها الوافر من العناية والاهتمام .

ثم أن هذه الحركة قد تأثرت بما كان عليه الناس من تمزق واختلافات مذهبية ، فجاءت تعبر عن ذلك عبر كثرة الجدل الذي قام حول عدّة مشاكل فكرية ( الفلسفة والشريعة والحساب والأدب والخير والشر ) . إلا أن هذا الجدل لا يعبر عن فساد فكري ، بل بالعكس فهو يعبر عن أن المجتمع كان يعيش حركة ثقافية عظيمة .

ولكن ما كان يشين هذه الحركة هي المهانة الأدبية والمعنوية التي كان عليها عدد هام من الأدباء والعلماء .

ونؤكد بعد تحليل مواقف أبي حيَّان من الحياة الفكرية لعصره .

إنها مواقف دلت على تفاعله التام مع ما كان يجري بالمجتمع من حركة فكرية .

وأنها قد ركزت على خطّ فكري واضح وهو التمسك بقيم الأصالة في الثقافة العربية الإسلامية .

وأن قبول الآراء الفلسفية الجديدة أو غيرها يجب أن لا يحطّم أسس الفكر العربي الإسلامي من أدب أو نحو أو خاصّة الشريعة .

ونتيجة لهذه المواقف فإننا نعتبر التوحيدي مفكراً تقليدياً ، فهو في ثقافته كذلك »

---

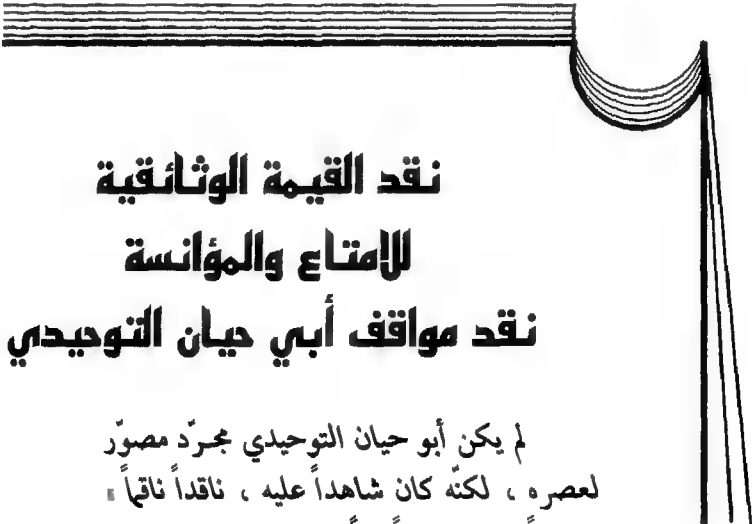
(97) و(98) ج 2 ص 143 .

إذ أن معارفه أدبية أكثر منها علمية ، وهو في تحليله لأسباب سوء منزلة المفكر كذلك أيضاً ، وهو تقليدي أيضاً في موقفه من المتكلمين والفلاسفة . وهذا الموقف ينسجم تمام الانسجام مع ما كنّا وصلنا إليه في تحديد مذهب المؤلف السّني .

وهذا الموقف ليس مقصوداً على الحياة الفكرية وإنّما هو خطّ متواصل في تفكير المؤلف السياسي والاجتماعي أيضاً .

فما سبب ذلك يا ترى ؟ .





## **نقد القيمة الوثائقية للإمتاع والمؤانسة نقد مواقف أبي حيان التوحيدي**

لم يكن أبو حيان التوحيدي مجرد مصوّر  
لعصره ، لكنّه كان شاهداً عليه ، ناقدًا ناقماً ۞  
رافضاً ، ومرفوضاً معاً .



إنّ الهدف من هذا العنصر هو أن نبحث في مدى وثائقية الصّورة التي قدّمها لنا التوحيدى من خلال كتاب الامتاع والمؤانسة عن مختلف مظاهر الحياة في عصره . وأن نحاول معرفة الدوافع المختلفة التي أثرت في آرائه وأفكاره .

وقد اضطررنا البحث إلى أن نعود إلى مصادر ومراجع مختلفة من الكتب القديمة والحديثة التي عنيّت بالحديث عن القرن الرابع للهجرة عامّة أو عن أبي حيّان التوحيدى خاصّة . وركّزنا العمل أساساً على مصدرين حديثين عدنا إليهما تقريباً في أغلب الأحيان لأنّ تأخرهما في الكتابة والنشر مكن صاحبيهما من الرّجوع إلى أمهات الكتب التي وجدا فيها حديثاً عن ذلك العصر . والكتابان هما :

1 - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام من تأليف الأستاذ « آدم متر » ( المتوفى عام 1917 ميلادية ) . وقد ألفه باللغة الألمانية ومات قبل أن يتمكن من نشره . وتولّى ترجمته ونقله إلى العربية « محمّد عبد الهادي أبوريدة الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة . ونشرته دار الكاتب العربى ببيروت لبنان .

والمهمّ في الكتاب أنّ الأستاذ آدم متر قد عاد عند تأليفه إلى أمهات الكتب العربية وإلى مخطوطات لم تنشر بعد . وجدها في مكتبات أوروبية ؛ وعمد الأستاذ أبوريدة عند الترجمة إلى العودة إلى النصوص الأصلية للأمهات وحتىّ المخطوطات ؛ وقد مكّنته معرفته باللغة الألمانية من تصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤلّف عند ترجمته للشواهد من العربية إلى الألمانية .

وامتاز الكتاب بدقة المنهجية في البحث وهو أمر أعوز المؤلفات القديمة .

2 - أما الكتاب الثاني فهو ظهر الإسلام ( الجزء الأول والجزء الثاني ) للأستاذ أحمد أمين يبحث الجزء الأول في ( الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع للهجرة ) ويبحث الجزء الثاني في ( تاريخ العلوم والآداب والفنون في القرن الرابع للهجرة ) .

وأهمية الكتاب تكمن في وضوح أقسامه وعناصره وفي الجهد الكبير في استيعاب مادة التاريخ المتعلقة بالقرن الرابع الهجري وتحليلها .

وقد قارنّا بين الكتابين فوجدنا المعلومات متشابهة والاستشهادات متماثلة أو تكاد فدعم ذلك ثقتنا فيهما . ورغبنا أكثر في الاعتماد عليهما بالدرجة الأولى . ولكنّا نؤكد أننا لم نهمل إهمالاً تاماً المراجع القديمة . فقد عدنا إليها وأفدنا منها في ما لم يذكره أحمد أمين أو آدم متر .

كما عدنا عند تحليل مواقف التوحيدي وأسبابها إلى بعض مؤلفاته الأخرى غير الامتاع والمؤانسة ، وإلى مؤلفات أخرى مخصصة للحديث عن أبي حيان وعن أدبه .

وقد أشرنا إلى مواقع الإفادة من تلك المراجع في هامش التحليل ؛ وأثبتنا لها قائمة في آخر البحث .

وانطلاقاً من وعينا بأنّ النقد ليس تحديداً للمحاسن والمساوئ فقط ، وإنما هو إثراء للأثر المنقود بمعلومات قد لا توجد فيه . فإننا تحدّثنا عن بعض مظاهر الحياة التي لم يتحدّث عنها الامتاع والمؤانسة كالحياة الاقتصادية أو بعض صور من الحياة الاجتماعية والسياسية دون إطالة أو إملال .

ونبدأ أولاً بالحديث عن القيمة الوثائقية للإمتاع فنرى أنّه توجد عواويل كثيرة تجعلنا لا نقنع بوجود قيمة وثائقية تامة للصورة التي قدّمها لنا الكتاب عن المجتمع في القرن الرابع الهجري من ذلك مثلاً :

- أن التوحيدي لم يتحدّث عن الربع الأخير من القرن الرابع الهجري ، فالتوحيدي قد أنشأ الكتاب وأرسله إلى صديقه أبي الوفاء المهندس حوالي سنة 375 هـ .

ثم إنّّه لم يتحدّث إلّا عن شؤون البلاد الخاضعة للنفوذ البويهي « أي العراق والرّي ، مع إشارات بسيطة إلى ما وقع بخراسان سنة 370 هـ داخل الدولة السامانية

من ثورة الجيش على الجور ، بينما البلاد الإسلامية أوسع من ذلك بكثير وكانت عدّة أجزاء منها خاضعة لغير البويهيين . فقد حكم الأمويّون بالأندلس ، والفاطميّون بمصر والعبيديّون بإفريقية والحمدانيّون بحلب الخ . . .

ورغم أنّ الدولة البويهية تعتبر من أهمّ الدول آنذاك ، فإنّ المجتمع الإسلاميّ أشسع من ذلك بكثير . هذا إضافة إلى أنّ القضايا المطروحة في الكتاب كانت في إطار دولة شيعيّة المذهب وذلك يجعلنا نتساءل عن نوع الحياة وعن طبيعتها داخل الدولة الأموية بالأندلس .

وأبو حيان التوحّيدي لم يتحدّث عن الحياة الاقتصادية بالبلاد . بينما كانت تلك الحياة داخل الخلافة تبدو نشيطة على المستوى المالي والمستوى الصناعي والمستوى التجاري .

وقد تميّز النظام المالي بكثرة الضرائب المفروضة على الناس وقد تضرّر من ذلك صغار الفلاحين الذين لجأوا إلى الكبراء والأقوياء للاحتماء بهم من الضرائب وقد عرف ذلك العمل بنظام الإلجاء .

وقد كثرت في ذلك العصر المصادرات عند احتياج السلطة إلى الأموال . ولذلك شاعت عادة خزن الأموال وإخفائها في غير مضانها كالدفن في الأرض ونحو ذلك<sup>(1)</sup> .

وشملت المصادرات الموقّ . فكانت أموالهم لا ترجع إلى ورثتهم ، بل تعود إلى ودائع السلطان . وقد نشطت التجارة نشاطاً كبيراً ، وكانت بغداد تتحكّم في الأسواق والأسعار لأنّها المركز التجاري الأهمّ في بلاد الإسلام كلّها .

وكانت الصناعة ذات نشاط حيّث . وتفنّن الصنّاع في إنتاج الملابس الفاخرة والسّتر الجميلة لتزيين البيوت ، وتطوّرت صناعة الحرير كذلك وأشهر مراكز إنتاجه إقليم خوزستان . وكان التفنّن في هذه الصناعات تلبية للترف الشديد الذي كانت تعيشه الخاصّة .

ومن العوامل الأخرى التي تجعلنا لا نرتاح ارتياحاً كاملاً للقيمة الوثائقية للكتاب ، أنّه لم يتحدّث عن الدور الذي كان يضطلع به الخلفاء في السياسة . فهو لم يذكر من الخلفاء إلّا المطيع لله وذلك عند حديثه عن ثورة الرّوم سنة 362 هـ . فقد أشار إليه

---

(1) أحمد أمين : طهر الإسلام (ح 1 ص 7 - 8) نشر مكتبة النهضة العربيّة ، الطبعة الرابعة 1966 .

إشارة عابرة في قوله وهو ينقل حديث العامة : وأنهم يقولون : « لو كان لنا خليفة أو أمير أو ناظر سائس لم يفيض الأمر إلى هذه الشناعة » وأن أمير المؤمنين المطيع لله إنما ما ولّاه ما وراء بابه ليتيقظ من ليله متفكراً في مصالح الرعايا «<sup>(2)</sup> .

فهل كان الخلفاء غائبين عن الساحة السياسية والاجتماعية كلّ هذا الغياب ؟ تؤكد كتب التاريخ أن الدور الأكبر في تعيين الخلفاء وعزلهم ، كان للوزراء البويهيين ، ولكنّ الخلفاء أثروا تأثيراً واضحاً في الحياة العامة بالبلاد من ذلك أن الخليفة القاهر كان شديد الإقدام على سفك الدماء ، محباً للمال ، قبيح السياسة ، قليل الرغبة في اصطناع الرجال ، غير مفكر في عواقب الأمور ، وكان مولعاً بالشراب ، لا يكاد يصحو من السكر وكان يسمع الغناء ، ومع ذلك حرّم على الناس الخمر والقيان «<sup>(3)</sup> .

وسوف نحاول إبراز الأسباب التي جعلت أبا حيان لا يتعرّض بالذكر إلى الخلفاء بينما تحدّث طويلاً عن الأمراء والوزراء .

أمّا العامل الأخير الذي يقلّل من القيمة الوثائقية للكتاب هو التباين الكبير بين ما قدّمه لنا أبو حيان من صور عن بعض الوزراء وبين ما وجدناه في الكتب القديمة والحديثة عنهم .

فالصّاحب بن عبّاد ( المتوفى عام 385 هـ ) أشادت المراجع بخصاله ، فقد قال فيه ابن خلّكان في كتابه وفيات الأعيان : « كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه وكرمه »<sup>(4)</sup> .

وقال فيه الثعالبي في يتيمة الدهر : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محلّه في العلم والأدب » وجلالة شأنه في الجود والكرم وتفردّه بالغايات في المحاسن ، وجمعه أشتات المفآخر لأنّ همّه قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه »<sup>(5)</sup> .

ونقل آدم متز صورة عن خبر موته فقال : « ولما مات الصّاحب عمل له ما يعمل للملوك ، فحضر جنازته مخدومه فخر الدولة ، وجميع أعيان المملكة ، وقد غيروا

(2) الامتناع والمؤانسة ج 3 ص 153 .

(3) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريّة : ج 1 ص 36 نشر دار الكتب العربي - بيروت لبنان .

(4) ابن خلّكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان لابن خلّكان : ج 1 ص 228 طبعة دار صادر بيروت لبنان .

(5) نفس المصدر ج 1 ص 230 .

لباسهم » فلما خرج نعشه صاح الناس صيحة واحدة وقبلوا الأرض لنعشه » ومشى  
فخر الدولة أمامه ، وقعد للعرزاء أياماً<sup>(6)</sup> .

فأين هذه الصورة المادحة لخصال الصّاحب بن عبّاد من قول أبي حيان فيه :  
« ... والناس كلهم محجمون عنه ، لجرأته وسلاطته واقتداره وبسطته ، شديد  
العقاب » طفيف الثّواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، يعطي كثيراً قليلاً ( أعني  
يعطي الكثير القليل ) ... حسود حقود حديد<sup>(7)</sup> .

إننا نعتقد أنّ التوحيدي قد قسا على الصّاحب بن عبّاد فقدّم لنا صورة غير موافقة  
للحقيقة لعدّة أسباب سنتولّى تحليلها عند نقد مواقف المؤلّف في العنصر الموالي .

وقد صوّر لنا التوحيدي شخصية أبي الفتح بن العميد مغالفة لما حدّث به عنه كتب  
التراجم والسير . فقد قال الزركلي في ترجمته لابن العميد : « أحبته القواد وعساكر  
الديلم لكرمه وطيب أخلاقه »<sup>(8)</sup> .

ولقد « أجمع مؤرخوه على أدبه وفضله ، وسفاحة أخلاقه ، وكفايته في إدارة  
الدولة » وإيثاره لذوي الفضل والأدب والعلم ...<sup>(9)</sup> .

أمّا أبو حيان التوحيدي فقد أبرز حسده لأهل الفضل والحكمة وقال : « لقي  
الناس منه الدّواهي »<sup>(10)</sup> . كما تحدّث عن لهوه وتفريطه في مباشرة واجباته السياسية  
وانشغاله باللّهو والشراب<sup>(11)</sup> .

لكننا نلاحظ أنّ حديث التوحيدي عن ابن العميد كان أقلّ قسوة من حديثه عن  
الصّاحب . بل إنّ في ما قدّمه لنا عنه شيئاً من الصّحّة فقد عرف عن أبي الفتح شيء من  
المجون وميل إلى الصيد والظّهور بمظهر الزينة والاحتشاد ، والإسراف في الملذّات . وقد  
كان المأخذ الأساسي للتوحيدي عن الرجل حسده للأدباء والعلماء وهو ما لا يتوافق وما  
حدّث به عنه كتب التراجم والسير .

(6) آدم متر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع للهجرة ج 1 ص 197 .

(7) الامتاع والمؤانسة ج 1 ص 55 .

(8) خير الدين الزركلي : الاعلام ج 5 ص 143 الطبعة الثالثة بيروت سنة 1969 .

(9) عبد الرزاق عحي الدين : أبو حيان التوحيدي سيرته وآثاره - الطبعة الثانية بيروت 1979 .

(10) الامتاع والمؤانسة ج 1 ص 67 .

(11) ج 3 ص 216 - 217 .

فهل من سبب لموقف أبي حيان هذا ؟

سوف نجيب عن هذا السؤال أيضاً في العنصر الموالي عند نقد مواقف التوحيدي .

هذه إذن أبرز العوامل التي جعلتنا نشكّ في القيمة الوثائقية التامة للصورة التي جاءت في كتاب الامتاع والمؤانسة عن القرن الرابع الهجري . لكننا نؤكد أن هذا الموقف ليس تهجيناً للكتاب أو استقصاً لقيّمته العلمية ، فهو كتاب أدب وليس كتاب تاريخ ، وقد كتبه أبو حيان التوحيدي تحت عدد كبير من الضغوط المادية والأدبية أشرنا إليها عندما عرفنا بالكتاب في العنصر الأول من هذا البحث .

فهذه المآخذ أردنا بها تحديد المنزلة العلمية للقيمة الوثائقية للأثر لا غير .

ونجد مقابل هذه المآخذ ، عناصر أخرى تغرينا بوجود وجه وثائقي للامتاع والمؤانسة من ذلك أنّ التوحيدي قد عاش ببغداد ، وألف الكتاب بها . وبغداد كانت آنذاك : « هي العاصمة بمعنى الكلمة الحقيقي ، وآية ذلك أنّ جميع الحركات الروحية في مملكة الإسلام كانت تتلاطم أمواجهها في بغداد ، وكان بها لجميع المذاهب أنصار »<sup>(12)</sup> . فتكون لذلك الصورة الموجودة في الامتاع والمؤانسة عن المجتمع معبرة بصورة عامّة عن أحوال المعيشة فيه سياسياً واجتماعياً وفكرياً . وهذا ما سنحلّله في ما يلي :

ففي ما يتعلّق بالأحوال السياسية رأينا التوحيدي يطيل في إبراز التوتر السياسي والفساد السياسي اللذين سادا المجتمع آنذاك . وقد بيّنا أنّ من مظاهر التوتر السياسي انعدام الأمن الخارجي وظهر ذلك في حديث التوحيدي عن ثورة الرّوم وهجومهم على البلاد الإسلامية في سنة 362 هـ .

وقد حاولنا أن نقارن بين ما أورده التوحيدي وما وجدناه في كتب التاريخ بشأن هذه الثورة فوقفنا على تماثل تام في رواية الأحداث إلّا في ما يتعلّق بموقف العامّة من الخليفة المطيع لله .

فبينما أشار أبو حيان مجرد إشارة إلى المطيع وكأنّه ليس مسؤولاً عمّا وقع بالبلاد . فحمّل الأمر كلّهُ للأمير عزّ الدولة وبينّ ثورة العامّة عليه ، لا على الخليفة<sup>(13)</sup> . نجد في كتب التاريخ أنّ الناس ثاروا على الخليفة لا على عزّ الدولة ؛ ففي كتاب شذرات الذهب

(12) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج 1 ص 133 .

(13) انظر الامتاع والمؤانسة ج 3 ص 153 .



في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي نقرأ في أخبار سنة 362 هـ : « وفيها أخذت الرّوم نصيبين واستباحوها وتوصّل من نجا إلى بغداد ، وقام معهم المطوّعة واستنفروا الناس ومنعوا من الخطبة » وحاولوا الهجوم على المطيع وصاحوا عليه بأنّه عاجز ، مضيع لأمر الإسلام . . . » (14) .

ونقرأ كذلك في كتاب آدم مترنقلاً عن عدد من المصادر القديمة حديثاً في نفس الموضوع يبرز فيه ثورة العامّة على الخليفة يقول : « قصدوا دار الخليفة فحاولوا الهجوم عليه ، واقتلعوا بعض شبابيك دار الخلافة ، وخاطبوا الخليفة « بالتعنيف ، فرماهم الغلمان بالنشاب من الراشن . . » (15) .

وفي ما عدا هذا الاختلاف نجد الرواية بين الامتاع والمؤانسة وبقية المراجع متوافقة » وذلك ما يجعلنا نقرّ وجود قيمة وثائقية جزئية في الكتاب .

وتحدّث التوحيدى عن كلّ ما فعله العيّارون سنة 362 هـ ببغداد من نهب وسلب وقتل وسفك للدماء أفقد المدينة أمنها ؛ على أنّ هذا الأمر لم يكن حدوثه فجئياً مثلما توحى بذلك رواية التوحيدى « فالعيّارون قد بدأ استبدادهم ببغداد منذ سنة 315 هـ فأرهبوها وعاثوا فيها فساداً ، وقد تفاقم أمرهم حتّى أعصى السلطة . واشتهر منهم لصوص كابن حمدي وغيره . يقول آدم مترنقاً ما أصاب الناس من أفعال هذا اللّص : « ومضى على الناس في أيّام ابن حمدي وقت تحارسوا فيه بالبوقات في الليل ، وامتنع عليهم النوم خوفاً من كبسات هذا اللّص وأصحابه » (16) .

وقد تحدّث أبو حيّان كثيراً في كتابه عن جور الحكّام وعن صراعاتهم السياسية وهذه عين الصورة التي نجدها في المراجع الأخرى « فالأمير معزّ الدولة لم يتوان عن مصادرة الناس وأخذ أموالهم ليبني لنفسه داراً جديدة في شمال بغداد و« كان لا يأبه كثيراً لحقوق رعيّته ، فاضطرّ إلى خبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها » (17) .

وذكر التوحيدى حادثة قتل عضد الدولة للوزير ابن بقية وصلبه ببغداد (18) ،

---

(14) اس العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج 3 ص 39 - 40 نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان .

(15) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج 1 ص 27 .

(16) المرجع السابق : ج 1 ص 30 - 31 .

(17) المرجع السابق : ج 1 ص 59 .

(18) الامتاع والمؤانسة ج 1 ص 41 - 42 .

وفصلت بقية المراجع كيف وقع القتل والصلب فوجد مثلاً في كتاب ابن خلكان وفيات الأعيان أن عضد الدولة قد سمل عيني ابن بقية ووضعته تحت أرجل الفيلة سنة 367 هـ ، وصلبه ببغداد فبقي مصلوباً إلى أن مات عضد الدولة<sup>(19)</sup> .

وتدلّ هذه الحادثة على شدة الصراع السياسي بين الحكّام مثلما أكّده أبو حيان . وقد كثرت الإهانة والقتل والتنكيل بين رجال السياسة ولم يسلم من ذلك حتى الخلفاء . فقد امتنهم البويهيون وأسأوا إليهم مثلما وقع للخليفة الطائع ( المتوفى عام 381 هـ ) فقد « دخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبوه وأنزلوه عن سريره وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد وأخذوا ما في داره . . . ثم أمروه أن يخلع نفسه ، ففعل بعد أن نزل للبويهيين عن كلّ شيء »<sup>(20)</sup> .

وقد كان هذا الصراع قائماً بين وزراء الدولة من البويهيين فأبو الفتح بن العميد وزير ركن الدولة بالرّي قد وقع سجنه وسمل عينه الوحيدة ثم قتله كل ذلك بتأمر من الصّاحب ابن عباد مع بعض أعداء ابن العميد .

ففي ما يتعلّق بالحياة السياسية نستطيع إذن أن نوّكد أن الامتاع والمؤانسة قد صوّر لنا خصائص العصر كما هي « من توتر وفساد وظلم وصراعات سياسية الخ . . . » .

والاختلاف بينه وبين كتب التاريخ أو التراجم إنما هو في دقائق المعلومات وفي بعض الجزئيات الأخرى ؛ ولا غرابة في ذلك فالكتاب كما سبق أن أكدنا كتاب أدب وليس كتاب تاريخ .

ولم تكن الصورة العامة التي قدّمها لنا التوحيدى عن الحياة الاجتماعية مخالفة للواقع السائد عصر ذاك ولعلّ الصورة عن الأحوال الاجتماعية تبدو أصدق من الصورة المعطاة عن الأحوال السياسية .

فقد بيّنا في سياق تحليلنا لخصائص الحياة الاجتماعية أن أهمّ ما ميّز تلك الحياة هو التباين الطبقي بين الخاصّة والعامة وأبرزنا ترف الأولى وخصاصة الثانية .

ونجد نفس هذه الصورة مسيطرة على كل الكتب التي تحدّثت عن ذلك العصر «

(19) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج 4 ص 203 - 204 .

(20) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج 1 ص 53 نشر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة 1966 .

فالأثرياء كانوا يملكون القصور الفاخرة والغلمان والجواري ، وكانوا يحرصون على اقتناء الجواهر الفاخرة والنادرة .

ويحدثنا أحمد أمين عن ثراء الوزراء فيقول : « وهكذا كان تيار الترف شديداً جارفاً حتى ليكتسح من وقف في سبيله . وقد أنشأ عضد الدولة البويهى بستاناً بلغت النفقة عليه وعلى سوق الماء إليه خمسة آلاف درهم » .

والوزير ابن مقله يربي الحيوانات في قصره ويعنى بها أكثر عناية . . . والوزير ابن الفرات كان يملك أموالاً كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف دينار . وكان ابن الفرات لا يأكل إلاّ بملعقة البلور ، « وما كان يأكل بالملعقة إلاّ لقمة واحدة » (21) .

وبلغ بالكبراء الترف أن جعلوا مع الطباخ رجلاً يعتني بتقديم الشراب لهم سموه الشرابي يقول آدم متز : « وكان في بيوت الكبراء إلى جانب صاحب المطبخ رجل يسمى الشرابي ، شأنه العناية بالشراب وآلته وبالفاكهة والزّوائج » (22) .

وبينما كانت الخاصة تملك المال الوفير وتعيش الترف والتّعيم ، كان أكثر الشعب بائساً فقيراً لا يستطيع توفير قوت يومه « وكانت لذلك نتائج اجتماعية واضحة . يقول عنها أحمد أمين « نشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعدّدة ، ترف لا حدّ له في بيوت الخلفاء والأمراء وذوي المناصب ، وفقر لا حدّ له في عامّة الشعب والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأغنياء » ثم المظاهر التي تنتج عادة من الإفراط في الترف كالتفنن في اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفس ، وكلّ المظاهر التي تنشأ عن الفقر كالحقد والحسد والكذب والخبث والخديعة » (23) .

إذن هناك تماثل واضح بين ما صوّره التوحيدى من تباين بين الأغنياء والفقراء وما صوّرته الكتب التي تحدّثت عن القرن الرابع الهجري ، وهذا التماثل يعطي لكتاب الامتاع والمؤانسة قيمة وثائقية لا شك فيها .

ومن خصائص العصر الاجتماعية من خلال الامتاع والمؤانسة انعدام الأمن ، ونقتصر على تأييد ذلك بما أصاب الناس بمدينة بغداد في ذلك العصر فقد : « خلت المنازل ببغداد من أهلها ، وصاروا يطلبون من يسكن الدار بأجرة يتعاطاها ليحفظها ،

(21) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج 1 ص 103 - 104 .

(22) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج 2 ص 245 .

(23) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج 1 ص 121 .

وأغلقت عدّة حمامات ومساجد»<sup>(24)</sup> .

وفسّر أبو حيان في الامتاع والمؤانسة انعدام الأمن بالتعصب المذهبي ونجد آدم متر يفسّر هذه الظاهرة بنفس السبب معتمداً على كتب قديمة كتاريخ ابن الأثير أو تاريخ يحيى بن سعيد ( وهو مخطوط بمكتبة باريس ) وغيرهما ، يقول : « وأضيف إلى هذا ما كان بين السنيين والشيعة من نزاع دائم » فكانوا يلقون النار بعضهم على بعض دائماً . وفي سنة 361 هـ قامت بالكرخ فتنة ، فأرسل الوزير حاجبه لقتال العامة ، وكان شديد التعصب للسنة ، فاضطرّ إلى إلقاء النار في أماكن كثيرة ليقضي على الفتنة ، فاحترق الكرخ حريقاً عظيماً ، وكان عدّة من احترق فيه سبعة عشر ألف إنسان . . . »<sup>(25)</sup> .

وقد رأينا كيف صوّر كتاب الامتاع والمؤانسة انتشار ظاهرة المجون في الكلام . وأيدت المصادر الأخرى وجود هذه الظاهرة .

فقد تحدّث أبو حيان عن انشغال الأمير عز الدولة بالقصف والعزف ولوعه بالصيد وها هو مسكويه في كتابه تجارب الأمم يؤكد نفس هذه الصورة يقول متحدّثاً عن عزّ الدولة : « وكان يحبّ أن يقضي أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو ، واللعب بالنرد . . . وقد اتفق مرّة أن أسر له غلام تركي فجنّ عليه جنوناً » وتسلى عن كلّ شيء خرج عن يده إلّا عنه « وامتنع عن الطّعام والشراب وانقطع إلى النحيب والشهيق والعويل »<sup>(26)</sup> .

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالمجون أبو العباس الخنصبي الذي « كان يواصل شرب النّبيذ بالليل والنوم بالنّهار في أيّام وزارته كلّها » وكان يتتبه مخموراً لا فضل فيه للعمل »<sup>(27)</sup> .

هذه إذن خصائص الحياة الاجتماعية في كتاب الامتاع والمؤانسة تبدو معبّرة عن الصّورة العامّة لأحوال العصر بما فيها من تباين اجتماعي وفساد أخلاقي وهذه الصورة لا تخصّ مدينة بغداد وحدها أو الدولة البويهية فقط بل هي تخصّ أحوال المجتمع الإسلامي بكلّ أقسامه مع اختلافات في جزئيات بعض الأمور . وذلك ما يجعل الكتاب صادقاً في

(24) و(25) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج 1 ص 31 .

(26) نفس المصدر السابق ج 1 ص 59 - 60 ( نقلاً عن كتاب مسكويه : تجارب الأمم ج 5 ص 386 - 389 ) .

(27) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج 1 ص 193 .

اتصاله بالواقع الاجتماعي وفي التعبير عن خصائصه العامة ؛ وهو ما يعبر عن وعي المؤلف بالأحداث التي تعيشها البلاد .

ونفس هذه الملاحظة تنطبق على الصورة العامة التي قدمها لنا أبو حيان عن الحياة الفكرية . فقد أبرز كتاب الامتاع والمؤانسة تعدد المشاغل الفكرية في القرن الرابع من العلوم اللغوية إلى الفلسفة إلى علوم الدين والأدب وغيرها . وإن نظرة بسيطة في كتب تاريخ الأدب تجعلنا نقف على حركة فكرية نشيطة في القرن الرابع الهجري ، أخذت فيها كل المعارف حظها من الاهتمام والتطور .

فقد تجاوزت الدراسات اللغوية العراق لتصل إلى مصر والأندلس فما يحكى أن «طالبين مصريين درسا النحو والصرف ببغداد» ثم عادا إلى مصر ، فملاها نحواً وصرفاً . . . وكوّنوا مدرسة في القاهرة تشبه مدرسة الزّجاج في بغداد .

وتطورت الدّراسات اللغوية بتأثير الفلسفة اليونانية وقد كان أبو الحسن الرّماني<sup>(28)</sup> أوّل من مزج بين النحو والمنطق فأحدث ذلك نقاشاً حول أيهما أفضل النحو العربي أو النحو اليوناني<sup>(29)</sup> . وقد أعطانا التوحيدى مثلاً حول هذا النقاش عندما روى لنا المناظرة التي دارت بين أبي سعيد السيرافي ومتّى بن يونس وتعتبر هذه المناظرة وثيقة فريدة من نوعها « احتفظ لنا بها كتاب الامتاع والمؤانسة .

وعندما نقارن بين الصورة التي قدمها لنا كتاب الامتاع والمؤانسة عن العلوم الصحيحة وما تعرضت إليه الكتب الأخرى نلمس الفرق بيننا ، لأن حديث التوحيدى في هذه العلوم كان باهتاً لا يعكس ما وصلت إليه في القرن الرابع الهجري من دقة وتطور ، وقد نشطت هذه الحركة في كلّ البلاد الإسلامية ونبغ في كلّ علم رجال طوّروه . يقول أحمد أمين في وصف ما وصلت إليه تلك العلوم في ديار الإسلام : « وقد عنيت طائفة بها ، وتقدّمت تقدّماً كبيراً في هذا القرن الرابع ، وتفاخروا الملوك والأمراء بها ، وزيّنوا أقطارهم بها ، فجيريل ابن بختيشوع في العراق ، وابن الهيثم في العراق ومصر وعلي بن رضوان في مصر وابن البيطار النبّاتي وغيرهم »<sup>(30)</sup> .

(28) هو علي بن عيسى أبو الحسن الرّماني ، كان إماماً في العربية وعلامة في الأدب ، وكان معتزلي المذهب مات سنة 384 هـ .

(29) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج 2 ص 123 .

(30) المرجع السابق : ج 2 ص 191

وكم كان أبو حيان التوحيدي صادقاً في تصوير سوء منزلة المفكرين في عصره .  
فقد أثبتت كتب التراجم بؤس كل مفكر لم يتصل بأمير أو وزير وهو ما بينه أبو حيان في  
الامتناع والموانسة ، عندما أبرز شدة الخصاصة التي عاناها هو وعاناها أبو سليمان  
السجستاني وابن يعيش الرقي وغيرهم .

وفي معجم الأدباء وجدنا أمثلة موجعة عن بؤس المفكرين في عصرهم ذاك فهذا أبو  
بكر القومسي الفيلسوف شكى الفقر بقوله : « ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما  
بلغ مني » إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب مائها ، وإن خرجت إلى الفقار لأتيمم  
بالصعيد عاد صلداً أملساً »<sup>(31)</sup> .

وهذا المعافى بن زكريا النهرواني : « قد نام مستدبر الشمس في يوم شات ، وبه من  
أثر الفقر والبؤس أمر عظيم مع غزارة علمه واتساع أدبه وفضله المهور »<sup>(32)</sup> .  
والأمثلة في هذا الموضع كثيرة وذاك ما يدل على شدة الغبن الذي كان يحياه  
المفكرون في ذلك العصر .

بعد هذه المقارنات بين الصورة التي قدمها لنا كتاب الامتناع والموانسة وبين ما جاء  
في المراجع الأخرى من حديث عن القرن الرابع الهجري نستطيع أن نؤكد ما يلي :

أن الكتاب يتفق بصورة عامة في إبراز الخصائص العامة للعصر مع بقية المراجع .  
والاختلافات الموجودة بين الامتناع والموانسة وغيره من الكتب إنما هي اختلافات جزئية  
تخصّ دقة بعض المعلومات أو وضوح بعض الصور . ولذا فإننا نقرّ بوجود قيمة وثائقية  
عامة للكتاب ، رغم النقائص التي يبيّنها في بداية هذا العنصر .

ثم إنّ التوصل إلى استخراج هذه القيمة يتطلب جهداً تحليلياً كبيراً ، لتشتت  
المعلومات وتوزّعها على كلّ أجزاء الكتاب . ويبدو لنا هذا الأمر طبيعياً إذ كتاب الامتناع  
والموانسة كتاب أدب وليس كتاب تاريخ .

ونؤكد كذلك أن التوحيدي لم يغبن آراءه ومواقفه من مشاغل عصره . فانطبعت  
هذه الصورة العامة بنظرة المؤلف وبعقيدته ولعلّ ذلك ما يفسّر لنا تلك الاختلافات  
الجزئية بينه وبين غيره من الكتب .

(31) ياقوت الحموي . معجم الأدباء ج 15 ص 10 .

(32) المرجع السابق ج 19 ص 151 .

أما إذا أردنا نقد مواقف المؤلف في الامتناع والمؤانسة فإننا نقول :

إن المواقف التي اتخذها أبو حيان التوحيدي من مختلف قضايا عصره « تعبر عموماً عن عدم رضاه بالواقع السائد في المجتمع وعن توقه إلى وجود قيم بديلة وحسنة لتخلف القيم الفاسدة .

وقد تلوّنت صورة المجتمع المرسومة في الامتناع والمؤانسة رغم اكتسابها عامّة الطابع الوثائقي - بمواقف المؤلف وانطباعاته وانفعالاته .

ونحن في هذا المقام سوف نتولّى تقييم تلك المواقف محدّدين مختلف الأسباب الذاتية أو العامة الدافعة إليها .

لقد اتخذ أبو حيان مواقف عديدة في الامتناع والمؤانسة تحت ضغوط نفسية حادة « تمكّنت منه ولم يستطع التجرّد من تأثيراتها وقت التصريح برأيه .

وإن موقفه من الصّاحب بن عباد لأبرز دليل على ذلك . وقد اعترف التوحيدي بذلك صراحة عندما طلب منه الوزير ابن سعدان أن يحذّنه عن شخصيّة الصّاحب فقال متمنعاً من الجواب : « إني رجل مظلوم من جهته وعاتب عليه في معاملتي ، وشديد الغيظ لحرمانني . وإن وصفته أربيت منتصفاً « وانتصفت منه مسرفاً ، فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب « أو عارياً منهما جملة كان الوصف أصدق والصدق به أخلق » (33) .

فيظهر من هذه الفقرة وعي أبي حيان التّام بالخلفيات التي تتحكّم فيه عند الحديث عن الصّاحب ، والوعي عادة ما يحرّر صاحبه من الضغوط ويوجه مواقفه وجهة موضوعية وعلميّة ، لكن يبدو أن ما كان بين الرّجلين لا يستطيع مسح تأثيراته حتّى الوعي .  
فما هو الأمر ؟ .

نجد في كلام أبي حيان إحساساً قوياً بالألم الذي خلّفته صلته بالصّاحب بن عباد من ذلك عبارات : مظلوم من جهته ، وشديد الغيظ لحرمانني وأربيت منتصفاً . . . « إلّا أن الامتناع والمؤانسة لا يعطينا صورة أدق عن العلاقة بينهما غير ما وصفها به هذه العبارات .

---

(33) الامتناع والمؤانسة : ج 1 ص 53 - 54 .

ويعودتنا إلى كتاب ( مثالب الوزيرين ) وقفنا على كل فصول القصة بين الرجلين وهو ما ساعدنا على تفسير موقف أبي حيان من الصّاحب :

فقد انتجع التوحيدي « الصّاحب بأمل كبير في أن ينزع عنه رداء الفقر والمهانة ، وفي أن يتخلّص من ضنى البؤس والحرمان اللذين أضنيا حياته وكذاها . فلما وصل إليه كلفه الصّاحب بنسخ كتاب ، فانزعج وأسرّ لمن كان في الدّار « إنّما توجّهت من العراق إلى هذا الباب ، وزاحمت منتجعي هذا الربيع ، لأتخلّص من حرفة الشّوم ، فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة »<sup>(34)</sup>. وكلفه مرة أخرى أن ينسخ ثلاثين مجلّدة من رسائله بدعوى أنها مطلوبة في خراسان ، فارتاع وقال : « هذا طويل ، ولكن لو أذن لي لخرجت منه فقراً كالغرر ، لوزقي بها مجنون لأفاق ، ولو نفث على ذي عاهة لبرأ . . . »<sup>(35)</sup>. وقد سمع ابن عبّاد هذا الكلام فأله أن ينصبّ التوحيدي نفسه ناقداً وحاكماً يميّز الحسن من الرّديء في رسائل الصّاحب فقال متوعداً : « طعن في رسائي وعابها » ورغب عن نسخها وأزرى بها « والله لينكرن مني ما عرف » وليعرفن حظّه إذا انصرف »<sup>(36)</sup>.

وفعلاً برّ الصّاحب بقسمه فقسا على أبي حيان أشدّ قسوة « وحرمه من أجره النسخ طيلة ثلاث سنين فلم يعطه درهماً واحداً .

هذا هو أبرز سبب جعل المؤلّف يسخط على ابن عبّاد « وهو ضياع أمله في الخروج من ضنك العيش .

وتطوّرت العلاقة بين الرجلين في تلك المدة حتّى صارت منافسة يتواجهان فيها بالحدة ، فكان الصّاحب كلّما أهان التوحيدي بكلمة قاسية « تلقى أخرى أقسى منها » وقد أثبت معجم الأدباء رواية لأبي حيان يقول فيها : « حضرت مائدة الصّاحب ، فقدمت مضيرة فأمعنت فيها » فقال لي : يا أبا حيان إنّها تضر بالمشايخ ، فقلت : ان رأى الصّاحب أن يدع التّطبّب على طعانه فعّل . فكأنّي ألقيته حجراً « وخجل واستحيا ولم ينطق إلى أن فرغنا »<sup>(37)</sup>.

فالتوحيدي قد رفض الإهانة المعنوية والمادّية عند الصّاحب بن عبّاد وذلك سرّاً

(34) أبو حيان التوحيدي : مثالب الوزيرين ص 203 . تحقيق إبراهيم الكيلاني ، ونشر دار الفكر العربي بدمشق سنة 1961 .

(35) و(36) المرجع السابق ص 325 - 326 .

(37) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج 15 ص 7



فشل العلاقة بينهما . هذه العلاقة التي أفرزت في قلب المؤلف قرحاً لا يندمل . قال التوحيدي في كتابه مثالب الوزيرين واصفاً آثار ما بقي في نفسه من صلته بابن عبّاد : « ولكنني ابتليت به » وكذلك هو ابتلى بي ، ورماني عن قوسه معرقاً ، فأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيضاً ، وحرمني فازدريته وحقرتني فأخزيتني وخصّني بالخيبة التي نالت مني . فخصصته بالغيبة التي أحرقتة والبادي أظلم والمتصف أعذر »<sup>(38)</sup>.

فيظهر إذن أن التوحيدي في حديثه عن الصّاحب بن عبّاد في الامتاع والمؤانسة « ما زال متأثراً بعاطفته الملتهبة غيضاً وحقداً والتي لم تشتف ولم تهدأ حتى بعد كتابة رسالة ( مثالب الوزيرين ) وهو سرّ التباين الكبير بين تمجيد المؤرخين وأصحاب التراجم للصّاحب بن عبّاد وتهجين أبي حيّان له .

ونحن لا ننكر على التوحيدي موقفه ، فهو أديب قد عبّر عما خالجه ذاته من مشاعر . والأدب الصادق هو ما كانت بعض منابعه خلجات النفس في غضبها أو رضاها .

وموقف أبي حيّان من ابن العميد مشابه كثيراً لموقفه من الصّاحب إذ أنه قد صدر عن نفس مثالة للحرمان الذي لاقته منه . يقول الدكتور زكريا إبراهيم « وقد يعجب المرء كيف ارتضى أبو حيّان لقلمه أن يخوض في عرض ابن العميد ، وأن يمضي في قدحه وهجائه إلى هذا الحدّ ، ولكنّ الظاهر أنّ خيبة أمل أبي حيّان من وراء انتجاعه لفناء ابن العميد هي التي حدّت به إلى المبالغة في ذمه والطعن فيه »<sup>(39)</sup> .

ومن المواقف الأخرى التي اتخذها أبو حيّان تحت مؤثرات نفسية « معارضته لثورة العيّارين سنة 362 هـ . فقد صوّر أصحاب هذه الثورة في أحقر الصور ونعتهم بنعوت تدلّ على معارضته لكلّ ما أتوه من أعمال داخل المجتمع » والسبب في ذلك أنه قد أصابه من العيّارين شرّ كبير « إذ انتهب بيته » وقتلت جاريته فأضحى مفلساً معدماً ( لا يملك مع الشيطان فجرة ولا مع الغراب نقرة ) .

فلا يمكننا أن نتنظر من التوحيدي إجلالاً لهذه الثورة ولأصحابها « إلّا أن يكون قد قتل من نفسه حساسيتها وانفعالاتها وأسأها ووقف يتأمل بعين العقل الأسباب الهيكلية

(38) أبو حيّان التوحيدي : مثالب الوزيرين ص 58 .

(39) زكريا إبراهيم : أبو حيّان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ص 42 ( نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ) الطبعة الثانية 1974 .

التي دفعت بالعيّارين إلى ذلك الفعل ويتفهم ما عانوه من مهانة وخصاصة فيعذرهم ويقف إلى جانبهم .

وما كان أبو حيان ليستطيع ذلك الفعل فالوجدان من عناصر كيانه الأساسية . إلا أنه يجب أن نلاحظ أنّ التوحيدي قد كان أكثر شدة وقسوة على الصّاحب من العيّارين فكأنّ الإهانة المعنوية التي لاقاها من ابن عبّاد آلم في نفسه من الإفلاس الذي تركه العيّارون .

وليست كلّ مواقف المؤلّف في الامتاع والموانسة وليدة الضغوط النفسية أو الوجدانية ، فهناك مواقف كثيرة وقفها بدافع المبدأ الذي يؤمن به ونذكر منها خصوصاً موقفه من المتكلمين . فقد سبق أن بينا في عنصر ( مواقف التوحيدي من الحياة الفكرية ) عداؤه الصريح لهم وقد تجاوز فيه حدود المعارضة الفكرية للمتكلمين « ليدعو عليهم بالشرّ ، واستتجننا من ذلك مذهبه الدّيني فقلنا إنه سُنيّ يقف في وجه ما أحدثه المتكلمون من « بلبلة » في الفكر الديني الإسلامي ، وأشرنا إلى نقده لابن البقال في قوله بتكافؤ الأدلّة بين الخير والشرّ .

هذه النظرة المحافظة قد تحكمت في كثير من المواقف الأخرى للمؤلّف ؛ فمثلاً عدم حديثه عن الخلفاء في القرن الرابع وعن دورهم في الحياة السّياسية والاجتماعية « لم يكن من قبيل الصدفة ، فنحن لا نجدّه يتحدّث عنهم كثيراً حتى في بقية كتبه . والسبب في ذلك هو أنّ خلفاء بني العبّاس كانوا سنّيين ، بينما الوزراء والأمراء كانوا في أكثر الأحيان شيعيين ، وكأنّ التوحيدي ما زال يعتقد ، رغم كلّ الظروف ورغم ما وقع للخلفاء من ضعف سياسي وقلة نفوذ في الحياة العامّة . في جلال الخلافة ، فلم يشأ أن يمسّ الخليفة بكلام سوء .

وهو وإن لم يتحدّث عن الخلفاء في عصره ، فإننا نراه كثيراً ما تحدّث عن سيرة الخلفاء الراشدين وعن خلفاء آخرين مثل عبد الملك بن مروان أو عمر بن عبد العزيز خاصّة ، ليرز فضائلهم السّياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

ومن مواقفه المحافظة في الميدان الفكري تفضيله لمنهج أبي سعيد السيرافي في اللغة على منهج أبي علي الفارسي . إن هذا الموقف لم يتّخذ التوحيدي وفاء لأستاذه فقط وإنما اتّخذهُ لأنّ أبا علي الفارسي قد أدخل عنصري القياس والمنطق في اللغة .

وكانت بينه وبين السيرافي اختلافات كبرى حول عديد المسائل اللغوية « وما هذه

الاختلافات إلا صورة بيّنة عن الصراع الفكري بين القديم والجديد في المجتمع الإسلامي . وقد وقف أبو حيان مع القديم صراحة بمدحه علم أبي سعيد وذمه علم أبي علي الفارسي .

يقول أحمد أمين مقارناً بين العالمين : « وفي الحق أن السيرافي كان أشبه بالمحافظين ، يروي ما يسمع ويحفظ ما يروي على كثرة ما يروي وما يحفظ » في ثقة وأمانة ، وأن أبا علي كان حرّاً مبتكراً قياساً ، فتح للناس هو وتلميذه ابن جني أبواباً جديدة في النحو والتصريف لم يسبقا إليها . » (40) .

وشبيه بهذا موقفه من الفلسفة والشريعة ، فقد فضّل الشريعة على الفلسفة واعتبرها أكمل منها وما ذاك إلا لأن الفلسفة عنصر جديد في الفكر العربي الإسلامي . جاءت عن طريق الترجمة فلهج بها العلماء وردّدوا أفكار الفلاسفة اليونانيين وغيرهم . وكان لدخول الفلسفة أثر كبير في ظهور مذاهب عقلية عملت على تجديد الفكر الإسلامي . فاختلقت تلك المذاهب في ما بينها وترامت بالكفر والتفسيق .

ولا بدّ أن نلاحظ أن أبا حيان لا ينكر التفلسف ولا إعمال العقل لكنّه ينكر أن يروغ التفلسف بالإنسان إلى الكفر ومخالفة الشريعة .

ويتنزّل في نفس هذا الاتجاه موقف التوحيدي من الأدب والحساب فقد بينا أنه يرفض أن تفضل صناعة الحساب صناعة البلاغة والإنشاء « بل هو يقرّ بالتكامل بين الصّناعتين .

إننا نرى من خلال هذه المواقف أن أبا حيان يعارض كل جديد يدخل المجتمع فهل ذلك منه تحجّر وتنكّر للتطوّر ؟ .

يجب أن نعود هنا لواقع المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري لنفهم موقف أبي حيان .

يقول أحمد أمين واصفاً حالة المجتمع آنذاك : « أصيب العالم الإسلامي بانقسام كبير ، حتّى كأنّه عقد انفراط ، أو صخرة تفتّت » (41) . تعبّر هذه الجملة صادق التعبير عن حالة العالم الإسلامي آنذاك ، وهي حالة من الانقسام العام سياسياً واجتماعياً وفكرياً .

(40) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج 1 ص 243 .

(41) المرجع السابق ج 1 ص 1 .

ومن أبرز أسباب ذلك التشتت الكبير دخول عناصر جديدة حملت معها رؤى جديدة في السياسة والفكر والمجتمع ، وتغلغلت تلك العناصر بنظرتها تلك وسيطرت على المراكز السياسية والاجتماعية والفكرية فازداد المجتمع تمزقاً وصار مهتداً في كيانه لأنه فقد العدل السياسي والتسامح الاجتماعي .

وقد وعى التوحيدي هذه المخاطر فأبرز صراحة موقفه ؛ فهو خائف على مستقبل هذا المجتمع غدا إن دام تشتته وتمزقه ، وانطلاقاً من هذا الخوف وقف معارضاً لكل جديد يعمق التفكك بالبلاد .

فالمعارضة ليست عقيدة ، بل هي موقف آني حتى يسلم المجتمع ويأمن على غده من الضياع والدمار وإن المحافظة التي أبدأها في آرائه هي موقف دفاعي عما يمكن أن يخلص البلاد من الموت الحاضري ، لذا فقد رأيناه لا يرفض التفلسف كل الرفض ولا الحساب أيضاً إلا في مدى معارضتهما للقيم الأصلية بالمجتمع .

ومواقف التوحيدي لم تقتصر على إبداء المعارضة لبوادر الدمار المترصدة بالمجتمع بل إنها لمتحت إلى وجوه الإصلاح السياسي والاجتماعي .

والنظرة إلى الإصلاح وإلى وسائله لا تختلف من حيث الجوهر عن النظرة إلى هذه العناصر الجديدة المهددة للحضارة الإسلامية . فرفض الجديد دفاعاً عن المجتمع وصوناً له من الدمار ينسجم وحنين أبي حيان إلى عهد مضى كان خلاله المجتمع آمناً في ظلال الإسلام ديناً ، والعدل سياسة ، والوحدة اجتماعاً .

فلا صلاح لأمر المجتمع ، في رأي أبي حيان إلا بإقامة سياسة شرعية « وبسيادة قيم أخلاقية فاضلة وبوحدة اجتماعية متينة .

فلو كان أبو حيان معاصراً لنا لقلنا هو مفكر سلفي ! .

لكن حسبه أن عاش بوعي المفكر البصير ، ونظر إلى مجتمعه بعين الناقد المنقب عن مواطن الصلاح والفساد .

إننا قد لا نوافق أبا حيان في مواقفه المحافظة ؛ إذ أن المجتمع في القرن الرابع الهجري قد تطور وهو بحاجة إلى عناصر جديدة لتستقيم الحياة فيه ؛ لكننا رغم ذلك نقدر فيه توفقه إلى العدل السياسي وإلى الوحدة الاجتماعية وإلى وجود قيم أخلاقية فاضلة لأن تلك الأمور هي أساس الكينونة الحضارية .



نستطيع إذن أن نوّكد في نهاية هذا العنصر أن لكتاب الامتاع والمؤانسة قيمة ذهنية وأخرى واقعية ؛ فهو قد عبّر عن ناحية من مفهوم الثقافة في ذلك العصر وما اتسمت به من موسوعيّة فكرية . ويظهر ذلك في تطرّق الكتاب إلى البحث في مواضيع كثيرة منها ما تعلق بالأدب ومنها ما اهتمّ بالفلسفة أو بالدين أو بالنفس أو بالأخلاق وغيرها من المواضيع .

وهذه الروح الموسوعية مما زالت تعبّر عن نظرة قديمة للثقافة ، كان إلحاحظ قد حدّدها في قوله المشهور : « الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف » . فلم تظهر بعد نزعة التخصص التام وعكوف العالم على الاهتمام بفنّ واحد .

والكتاب إلى جانب هذا الأمر نجده قد صوّر شؤون المجتمع في القرن الرابع الهجري وأبرز ما يتهدّده من أخطار داخلية وخارجية « تنذر في كلّ مظهر من مظاهرها بالدمار الذي ينتظر الحضارة الإسلامية ، فبدت صورة الواقع قائمة لا يكاد ينبجس منها شبح نور يحدّد الأمل في غد أفضل . فهل نجد مجتمعاً أسوأ من ذلك الذي تسوده الفوضى السياسية والاجتماعية ويحكمه الظلم والعسف وتسيل فيه الدماء هدرًا ؟ .

هاتان القيمتان : الذهنية والواقعية تعبّران عن عميق الصّلة بين الكتاب والبيئة التي أفرزته .

إلا أن الصورة المرسومة لتلك البيئة ، يجب أن لا نتخذعنا ففرتاح إليها وكأنها الواقع ذاته ، فهي صورة رسمتها عين أبي حيّان السوداء ونمّقها ضميره القلق وصاغها عقله الثائر فجاءت داكنة تمازجت فيها كل عوامل قلق المؤلّف وثورته .

فالكتاب إذن هو إفراز لعوامل البيئة وبواطن الذات .

فما هي منزلته بين مؤلفات أبي حيّان الأخرى ؟ .

## الخاتمة

بعد النظر في مختلف خصائص العصر وفي مواقف أبي حيان التوحيدي منها من خلال كتاب الامتاع والمؤانسة يجدر بنا أن نتساءل عن منزلة هذا الكتاب من مؤلفات التوحيدي الأخرى « وعن منزلة أفكار صاحبه من أفكار بقية معاصريه ؟ .

لقد كان كتاب الامتاع والمؤانسة الرافد الذي تجمعت فيه عصارة مؤلفات أبي حيان الأخرى « رغم أنه لم يكن آخر الكتب التي ألفها ؛ ففيه خلاصة كتاب ( مثالب الوزيرين ) لأنه حدّد الموقف الجوهري لأبي حيان من ابن العميد والصاحب بن عباد ؛ وفيه قبس من ( المقابسات ) لخوضه في شتى فنون المعرفة من فلسفة وتصوّف وغيرها ؛ وفيه أيضاً من ( البصائر والدخائر ) مزج الجدل بالهزل والهزل بالجدّ ترويحاً عن القارئ » . وفي الامتاع والمؤانسة بعض من ( الإشارات الإلهية ) لأنه لمّح إلى إحساس المؤلف بالغربة داخل المجتمع ، وميله إلى العزلة وبداية يأسه من الحياة .

ففي الكتاب إذن روح أبي حيان التوحيدي بسعة ثقافتها وبهزلها وجدّها وبقلقها وتشاؤمها . وهذا الأمر يجعل « الامتاع والمؤانسة » يلتقي فكرياً ووجدانياً مع كلّ ما أنتج التوحيدي من آثار ، كما أنه يلتقي كذلك مع عدّة مؤلفات أخرى ظهرت في ذلك العصر واتّخذت منه مواقف مشابهة لتلك التي اتخذها التوحيدي .

فالشكوى من فساد الناس وحؤول الزمان لم ينفرد بها أبو حيان دون سائر مفكري عصره فهذا أبو الطيب المتنبي يهجو في قسوة شديدة أهل عصره قائلاً :

أذمّ إلى هذا الزمان أهيله فاعلمهم فدم وأحزمهم وغد

أكرمهم كلب ، وأبصرهم عم وأسهدهم فهد وأشجعهم فرد  
ولئن لم يبلغ العنف بأبي حيان ما بلغه بالمتنبي ، فإن روح الثورة على العصر تجمع  
بينهما وقد تبرّم التوحيدي في كتابه بالجور فنقد أشدّ نقد الحكّام الظالمين ، وحلّل أسباب  
الجور وأخطاره ، وهذا أبو العلاء المعري ( المتوفى عام 449 هـ ) . يتبرّم من الأمر ذاته  
تبرّماً أليماً جعله يملّ العيش قائلاً :

ملّ المقام فكم أعاشر أمة أمّرت بغير صلاحها أمراؤها  
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجزاؤها  
وهذا أبو بكر الباقلاني ( المتوفى عام 403 هـ ) ينفث شكية من فساد العصر في  
كتابه ( إعجاز القرآن ) شبيهة بشكية أبي حيان يقول : « . . . الجهل ممدود الرّواق »  
شديد النفاق ، مستول على الآفاق . والعلم إلى عفاء ودروس « وعلى خفاء وطموس »  
وأهله في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشّتيم « حتّى صار ما  
يكابدونه قاطعاً عن الواجب من سلوك مناهجه والأخذ في سبله »<sup>(1)</sup> .  
ولو عددنا الأمثلة في هذا الموضع لضاق عنها .

فالتوحيدي إذن ليس شاذّاً في مواقفه « ولا متطرّفاً في ما أفصح عنه عامّة » من  
ضيق وقلق . إلّا أنه رغم اتّفاقه مع كثير من أدباء عصره ومفكريه نجد له عنهم مميزات  
ومميزات . . .

---

(1) عن زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ج ٢ ص 72 - 73 ( دار الكاتب العربي بالقاهرة ) .

## قائمة المصادر والمراجع

- 1 - المصدر الأساسي :  
الامتناع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي . تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ونشر  
مكتبة الحياة ببيروت لبنان .
- 2 - المصادر والمراجع الأخرى مرتبة حسب أهميتها بالنسبة للبحث :
  - 1 - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متز . تعريب محمد عبد الهادي  
أبوريدة نشر دار الكاتب العربي ببيروت لبنان - الطبعة الرابعة سنة 1967 .
  - 2 - ظهر الإسلام : أحمد أمين . نشر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة  
سنة 1966 .
  - 3 - معجم الأدباء : ياقوت الحموي . طبعة القاهرة سنة 1936 .
  - 4 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان - نشر مكتب النهضة المصرية  
الطبعة الأولى سنة 1948 .
  - 5 - الاعلام : خير الدين الزركلي - الطبعة الثالثة - بيروت 1969 .
  - 6 - التوحيدي وقراءة جديدة في الامتناع والمؤانسة : محمد الحبيب حمّادي نشر دار صفاء  
للنشر والتوزيع والصحافة . الطبعة الأولى بتونس سنة 1979 .
  - 7 - أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة : د. زكريا إبراهيم نشر الهيئة  
المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية سنة 1974 .
  - - أبو حيان التوحيدي : سيرته وأثاره : عبد الرزاق محي الدين . نشر المؤسسة  
العربية للدراسات والنشر - الطبعة الثانية بيروت سنة 1979 .



- 9 - أبوحَيَّان التوحيدي : إبراهيم الكيلاني . نشر دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية .
  - 10 - مثالب الوزيرين : أبوحَيَّان التوحيدي - تحقيق إبراهيم الكيلاني نشر دار الفكر العربي بدمشق سنة 1961 .
  - 11 - الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية : أبوحَيَّان التوحيدي تحقيق د. وداد القاضي نشر دار الثقافة . بيروت سنة 1973 .
  - 12 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي .
  - 13 - النثر الفني في القرن الرابع : زكي مبارك - نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة .
  - 14 - تراث الإسلام : تصنيف شاخت وبوزورث - ترجمة د. حسين مؤنس وإحسان صدقي العماد . مراجعة د. فؤاد زكريا - نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت .
- المراجع بالفرنسية
- Encyclopedie de l'Islam : (Nouvelle Edition). G Pisonneuve-Paris 1960.
  - La psychologie sociale: Jean Stoetzel- Edition Flammarion France 1978.
- وهو كتاب استفدنا منه في موضوع علاقة الفرد بالمجتمع وتأثير ذلك على سلوكه .

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
5	الاهداء .....
7	تقديم .....
11	ترجمة تحليلية لأبرز مظاهر حياة أبي حيان التوحيدي .....
23	التعريف بكتاب الامتاع والمؤانسة .....
29	الباب الأول : خصائص الحياة السياسية ومواقف أبي حيان التوحيدي منها .....
53	الباب الثاني : خصائص الحياة الاجتماعية ومواقف أبي حيان التوحيدي منها .....
87	الباب الثالث : خصائص الحياة الفكرية ومواقف أبي حيان التوحيدي منها .....
111	نقد القيمة الوثائقية للامتاع والمؤانسة ؛ نقد مواقف أبي حيان التوحيدي ..
132	الخاتمة .....
134	قائمة المصادر والمراجع .....



General Organization Of the Alexan-  
dria Library (GOAL)

*Bibliotheca Alexandrina*

1993 / 3 / 465



